المتعلمون والمثقفون

الرجل المتعلم هو فى الواقع الذى تلقى دراسة تؤهله لممارسة احدى المهن المعروفة مثل مهنة التدريس أو مهنة المحاماة أو مهنة الطب أو الصيدلة وما الى ذلك من المهن التى تحتاج الى اعداد خاص يتوجه الحصول على اجازة تجيز له احتراف المهنة التى آثرها وعمل على الالمام بأصولها والاحاطة بطرائقها ، وأمثال هذه المهن تستلزمها شؤون الحضارة وأصول المجتمع .

أما الرجل المثقف فانه شىء آخر ، وهو قبل كل شىء الرجل الذى **يتخذ المعرفة الانسانية فى مداها الواسع وآفاقها المترامية ومعانيها العميقة غاية له** ، فهو لا يكتفى بدراسة جانب واحد من جوانب المعرفة ، ولا يقنعه ويروى ظمأه ويشبع نهمه فرع بمفرده من فروع العلم والمعرفة ، وانما يحاول أن يطرق كل بحث ، ويغوص فى كل فن ، فهو يحرص على أن يعرف حركات التاريخ البشرى وما استهدفته الانسانية من غايات وما تعرضت له من أخطار فى طريقها الشاق الطويل الى التطور والترقى ، وهو معنى بأن يصقل ذوقه ، ويهذب احساسه ومشاعره عن طريق الاستمتاع ببدائع الفن وطرائفه ، سواء فى التصوير والنحت أو الموسيقى والشعر ، وهو لا ينفك عن استطلاع آداب الأمم المختلفة والعصور المتباينة وقراءة الفلسفات والأديان والمذاهب الفكرية ، وما قاله الحكماء عن الحياة وغوامضها الخفية .

ويبدو من ذلك أنه يقوم بمحاولة عسيرة المنال ، غير ميسورة التحقيق ، وربما كان من المستطاع فى العصور السالفة أن يحيط الانسان بأطراف المعرفة الانسانية ، فقد كانت فيما مضى محدودة النطاق ، فكان الفيلسوف ديكارت مثلا رياضيا كبيرا وعالما نحريرا ، وكان فولتير كاتبا من الطراز الأول ومؤرخا له وزنه ، وكان فى الوقت نفسه يقوم بتجارب علمية بمعمله الخاص فى فرنيه ، وهيوم كان فيلسوفا بارزا ومؤرخا من المؤرخين المعدودين ، وكان أمثال هؤلاء الاعلام يعتبرون فى عصرهم أئمة الاستنارة وحملة مشعل الثقافة ، وذلك لأنهم اتخذوا عالم المعرفة ميدانا لهم ، ولكن التوفر على اتقان أى فرع من فروع المعرفة فى العصر الحاضر يستلزم زمنا ويتطلب جهدا لتشعب فروع المعرفة وتكاثر مادتها ، ونتيجة ذلك الاضطرار الى التخصص والضيق والانحصار حتى كثر عدد المتعلمين ، وقل عدد المثقفين .

بقلم

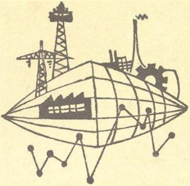
علي أدهم

ولما كان من الصعب أن يصبح الانسان مثقفا على مثال مثقفى العصور السابقة فلا مناص اذن من الاختيار ، فماذا يختار الذى ينشد الثقافة ؟ يختار فيما أرى ما يقوى تفكيره ويزيده نفاذا فى النظر وسلامة فى الذوق واستقلالا فى الرأى ، **لأن الرجل الحر التفكير المستقل الرأى** هو الذى يستطيع أن يكون لتفكيره أصالة ولآرائه قيمة ، **وأن يختار كذلك ما يرهف حسه ويقوى مشاعره ، والرجل الذى يأخذ نفسه بتأمل** الجمال فى الطبيعة والفن يسمو حسه وتصفو نفسه ، وتصبح أذنه تمقت الأنغام المتنافرة ، وتكره عينه المرائى الشائهة ، ولا يسيغ ذوقه الزيف ولا يقبل الباطل ، وتقوية التفكير وصقل الذوق وتهذيب النفس من المسائل التى يمكن اكتسابها وانماؤها ، وهى فى حاجة دائمة الى التعهد والمران .

والرجل المثقف يمتاز بالاعتدال والاتزان والسماحة فى آرائه وأحكامه ، ومن سماته سعة الأفق وأصالة الرأى وبعد النظر ، وطول بحثه فى الطبيعة الانسانية يجعله يجيد معرفة أخلاق الناس ، وكثرة المامه بحركات التاريخ وتقلباته وأطواره تجعل لأحكامه قيمة ، وتزيد آراءه **رجحانا ، ومعرفته بالمذاهب الفلسفية ومعظم المشكلات التى دار حولها الخلاف بين المفكرين يجعله** مترفقا بمخالفيه فى **الرأى والمذهب لأنه يعلم أن الآراء** البشرية مهما **يكن مصدرها لا تخلو من** مقدار من **الخطأ والصواب** ، وهو يسلم بأن معرفتنا الى حد كبير قائمة على الظن والتخمين والترجيح لا على البت والقطع والتأكيد،ولذا يمقت التعصب الذميم ، وقد يقال ان أمثال هذا المثقف رجال غير عمليين ، وان العالم فى حاجة ماسة الى العلماء والمتخصصين ، وقد وصلت الانسانية الى مرحلة الاختيار بين الحرب والدمار والفناء وبين السلم والبناء والبقاء ، وخير سبيل لانماء العلاقات الودية بين الأمم هى الاتجاهات الثقافية ، والاكثار من المثقفين ، واذاعة الثقافة بمختلف الوسائل وعلى مدى شامل .

ومشكلة الثقافة اليوم هى مشكلة الحضارة والبقاء ، وانقاذ العالم من التردى فى الهاوية منوط بالمثقفين الذين يعرفون كيف يكبحون جماح شهواتهم ويرتفعون فوق المطامع المحدودة والمآرب الذاتية ويفكرون فى آفاق واسعة متأثرين بالنزعات الانسانية الخلاقة .

علي أدهم



دراسات فى جغرافية الصناعة

الجغرافية الاقتصادية فرع حديث النشأة من فروع الجغرافية البشرية ، فهو لا يرجع الى أبعد من سنة ١٨٨٢ ، وكان أول من خصه بهذا الاسم الجغرافى الألمانى جوتس Gotz ليميزه عن فرع آخر من الجغرافية أخذ يدركه الوهن هو « الجغرافية التجارية » التى كانت تعنى بوصف انتاج السلع الرئيسية فى العالم وتسويقها فى ضوء أسسها الجغرافية المتنوعة ؛ وكانت بهذا الوضع ينقصها عنصر التحليل وربط الأسباب بالمقدمات ؛ مما جعلها تتخلف عن الاتجاهات التى بدأت تطبع الجغرافية الحديثة منذ أواخر القرن الماضى . وقد حاول « جوتس » أن يفلسف هذه الجغرافية التجارية بالاهتمام بعنصر السببية فى دراستها ، والبحث عن تأثير العوامل الطبيعية فى الحرف التى يحترفها الانسان ، والغلات التى ينتجها ، والكشف عن أثر ذلك كله فى حياة الشعوب التى تسكن مختلف الاقاليم فى العالم .

تأليف
دكتور فؤاد محمد الصقار

عرض ونقد

دكتور محمد محمود الصياد

الناشر : دار النهضة العربية ٤٠٠ صفحة قطع كبير ١٧×٢٤ سم

وكان فى تسمية هذا النوع من الدراسة « بالجغرافية الاقتصادية » خطب لود الاقتصاديين، ومحاولة للقضاء على القطيعة التى كانت قائمة بين الجغرافية والاقتصاد ، والتى كان الاقتصاد هو البادىء بها بحكم حداثة نشأته كعلم ، الأمر الذى كان يدفع به الى اقامة الحواجز الحامية من حوله فى محاولة لتعزيز مكانته واثبات وجوده ، حتى لقد ذهب آدم سمث أبو الاقتصاد الحديث فى الصفحة الأولى من كتابه « ثروة الأمم » الى أنه مهما كانت ظروف التربة أو المناخ أو اتساع المساحة فى أى أمة من الأمم فان وفرة مواردها أو ضآلة هذه الموارد انما تتوقف على عاملين هما المهارة الفنية والنسبة بين عدد من يستخدمون فى أداء عمل نافع ومن لا يستخدمون ، وهو بهذا يعلن القطيعة الكاملة بين الاقتصاد والجغرافية بالغائه كل أثر للظروف الجغرافية فى خلق الثروة ، مع أن كتابه الذى جاء فيه هذا الرأى كثيرا ما يوصف بأنه استنتاج منظم من التاريخ والجغرافية ، يحتوى بالنسبة لحجمه على مراجع جغرافية اكثر من أى مؤلف آخر فى الاقتصاد ظهر من بعده .

وقد سلك مسلك سمث فيما بعد كثير من الاقتصاديين مثل « بيجو » و « كينز » فجاءت كتاباتهم خالية تماما من الحقائق الجغرافية ، ولكن كثيرا من الاقتصاديين المحدثين بدأوا يدركون أهمية « المكان » فى الدراسة الاقتصادية ، فزادت عنايتهم بالاطار الاقليمى للاقتصاد ، وأخذت أواصر الود تتصل بين الاقتصاد والجغرافية . ولكن مع هذا فلا تزال مناطق التخوم والحدود المشتركة بين الدراسة الجغرافية والدراسة الاقتصادية تنتظر روادا من الجغرافيين والاقتصاديين معا للكشف عن خصائصها ووضعها فى خدمة العلمين على السواء.

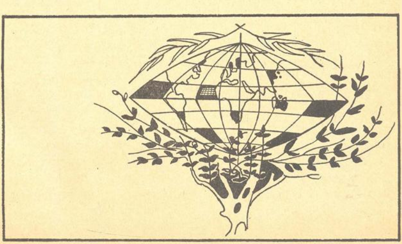
وقد أدى اهتمام الدول باستثمار مواردها

الطبيعية وصيانتها وتنميتها الى أن يتسع المجال أمام اصحاب الجغرافية الاقتصادية ، فظهر عدد ضخم من المؤلفات منها ما يتناول الموارد الطبيعية والانتاج الاقتصادى فى العالم كله ، ومنها ما يتناول ناحية من نواحى الانتاج أو يعالج النشاط الاقتصادى فى اقليم من الأقاليم ، وأدى تشعب الموضوعات التى تناولتها هذه المؤلفات الى تشعب المناهج التى اتبعتها ، ولكن أيا كانت هذه المناهج فانه يمكن حصرها فى ثلاثة أنواع رئيسية هى : المنهج الأقليمى ، والمنهج الموضوعى ، ثم المنهج الأصولى ·

والمنهجان الأولان هما أكثر المناهج شيوعا فى كتب الجغرافية الاقتصادية ، فيتناول المنهج الاقليمى كما يدل عليه اسمه دراسة الموارد الاقتصادية فى اطار اقليمى معين ، قد يكون طبيعيا أو سياسيا ، فيعطى صورة متكاملة للنشاط فى الاقليم الواحد ، وهو أمر له أهميته فى تقويم الدولة أو الاقليم اقتصاديا · أما المنهج الموضوعى فقد تناول الحرف التى يشتغل بها الانسان على أساس أن الحرفة انما هى حصيلة عدد من الظروف الطبيعية المختلفة توجه الانسان الى الطريقة التى يستغل بها المواد الطبيعية فى بيئته لسد احتياجاته المتنوعة · أو قد يتناول موارد الاقليم نفسها نباتية وحيوانية ومعدنية ، ويبين أهميتها الاقتصادية ومدى افادة الانسان منها· وهو أسهل المناهج وأكثرها شيوعا فى الكتب العامة ، وبخاصة تلك التى تتناول العالم ككل· أما المنهج الأصولى فيهتم بالحقائق والقوانين والعوامل الجغرافية وأثرها فى النشاط الاقتصادى وهو بهذا أقرب المناهج لكى يكون حلقة الوصل بين الجغرافية والاقتصاد ·

ولم يقتصر الدكتور فؤاد الصقار فى كتابه « دراسات فى جغرافية الصناعة » على منهج واحد من هذه المناهج ، بل نراه يتبع المنهج الأصولى وهو يتحدث عن الصناعات التحويلية والعوامل المؤثرة فيها ، والتخطيط الصناعى ومشكلاته ، ونظريات الموقع الصناعى وتوطن الصناعات ، ثم يعود فيستخدم المنهج الموضوعى فى دراسته لموارد الطاقة والخامات ، ولا يلبث أن يعود الى المنهج الاقليمى فيسرف فى استخدامه حتى يكاد يطغى على العدد الأكبر من فصول الكتاب ·

واتباع اكثر من منهج واحد آمر لا غبار عليه فى الدراسات العامة فى الجغرافية الاقتصادية نظرا لتشعب ميادينها واختلاف انواع النشاط الاقتصادى باختلاف الميادين ؛ ولكن استخدام المناهج جميعا فى دراسة انتاج متخصص كالانتاج الصناعى يظل مسألة فيها نظر !



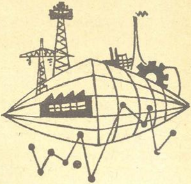
يبدأ الدكتور الصقار كتابه ، بفصل عن الصناعات التحويلية التى تتميز بأنها أكثر تعقيدا من الصناعات الأولية التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالظروف الطبيعية ، ويذكر البيانات المختلفة التى لا بد من الرجوع اليها فى دراسة الصناعة كالاحصائيات الخاصة بعدد المؤسسات الصناعية وتوزيعها ، وأنواع الصناعات المختلفة وعدد المشتغلين بها ، وجملة المرتبات والأجور ، وعدد ساعات العمل ومتوسط أجر العامل ، وكمية الانتاج وقيمته ، والقيمة المضافة بالنسبة للمصنع والعامل والمنطقة ، ورأس المال المستغل فى كل صناعة ، وغير ذلك من البيانات ، وهذا منهج أصولى سليم فى دراسة الصناعة ، ولكننا نقلب صفحات كتاب الدكتور الصقار ، فلا نرى الا القليل من الأثر لهذه البيانات التى أشار هو نفسه الى أنها ضرورية فى جغرافية الصناعة • لقد اهتم المؤلف بناحية واحدة هى كمية الانتاج ، وربما أشار بين الحين والحين الى قيمته ، أما الجوانب الأخرى فى اقتصاديات الصناعة فقد أغفلها المؤلف اغفالا تاما ، ففيم كانت الاشارة اذن الى أهميتها فى استخلاص الحقائق واعطاء الفكرة الصحيحة عن النشاط الصناعى ؟!

ثم يشير المؤلف الى التخطيط الصناعى، وينعى على الجغرافيين عدم اهتمامهم به حتى سبقهم اليه الاقتصاديون مع أنه يقوم أساسا على دراسة الموقع الجغرافى وظروفه الطبيعية والبشرية التى تشكل العملية الاقتصادية فى مراحلها الثلاث انتاجا وتبادلا واستهلاكا • ونحن لا نقره على ما ذهب اليه ، فقد كان للجغرافيين دائما رأيهم فى التخطيط الصناعى فى الدول التى تأصلت فيها الصناعة • وقد نشأ التخطيط الاقليمى فى المدارس الجغرافية وكان التخطيط الصناعى فرعا من فروعه •

ويتحدث المؤلف عن نظريات الموقع الصناعى ، وكيف بدأت فكرته فى المانيا ثم انتقلت الى بريطانيا وسائر الجهات الصناعية فى العالم ، ثم يشرح نظرية « الفرد فيبر » عن موقع الصناعة وأثر تكاليف النقل عليه ، وكيف حاول «ولفرد سمث» تطبيق النظرية على الصناعات البريطانية • وكانت وكانت هذه النظريات كلها موضع اهتمام الاقتصاديين أكثر من الجغرافيين • ولو أن الدكتور الصقار لام الجغرافيين على تخلفهم فى هذا المضمار لوافقناه على ذلك ، فالموقع من صميم اختصاصهم ، وليست الجغرافية منذ كانت الا علم « المكان » فى المقام الأول •

أما الفصل الثانى من الكتاب فيخصصه المؤلف لدراسة موارد الطاقة والخامات ، وفيه يستعرض فى ايجاز موارد الطاقة من خشب وفحم وبترول وكهرباء ، ثم يتناول المواد الخام ويصنفها الى أربعة أصناف على أساس مدى تأثيرها فى اختيار موقع الصناعة • ثم يعالج فى الفصل الثالث موضوع السوق والعمل ، ومدى تأثيرهما فى الصناعة وتأثرهما بها ، والعوامل التى تضبط العلاقة بين الانتاج الصناعى ومناطق تسويقه ، ثم يعالج مركز العمال فى الحضارة الصناعية ، وأهمية المهارة الفنية واختلافها من صناعة الى أخرى ، وتكاليف العمل والعوامل التى تتحكم فى مركزه من تكاليف الانتاج • ثم ينتهى فى الفصل الرابع الى دراسة الظروف الاقتصادية والسياسية وتأثيرها فى توزيع الصناعات فيتحدث عن الكفاية الذاتية ثم تزايد التخصص فى الانتاج الذى أصبح الظاهرة المميزة للصناعات الكبرى فى القرن العشرين • ثم يتكلم عن أثر السياسة الحكومية فى توزيع الصناعة فى الدول الاشتراكية والرأسمالية على السواء • وهكذا نجد المؤلف فى الفصول الأربعة الاولى من كتابه يطبق المنهج الأصولى تطبيقا بارعا فيعنى بدراسة الظاهرات الطبيعية والبشرية التى تتحكم فى اقتصاديات الصناعة ، وكان موفقا الى حد كبير فى تحليل هذه العوامل وبيان أثرها فى توجيه الانتاج وتشكيله •

وكنا نود أن يسير الدكتور الصقار على هذا النحو فى سائر فصول «جغرافية الصناعة» ولكنه لا يلبث أن يعود الى المنهج الاقليمى فى الفصول الستة من الخامس الى العاشر (ص ٨٥ – ٢٧٥) وهى الفصول التى تكون القسم الثانى من الكتاب• وفى هذا القسم يتناول مناطق الصناعة فى اوربا كقارة ، ثم فى بعض الدول الصناعية الكبرى كالجزر البريطانية وكنت أود أن يسميها المملكة المتحدة ما دام يتكلم عن الدول بالمفهوم السياسى، ثم دول غرب اوربا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية واليابان • **ولا أدرى ما الذى حدا بالمؤلف الى نهج هذا السبيل فجاء هذا القسم**



من كتابه أقرب الى الجغرافية الاقليمية منه الى الجغرافية الاقتصادية ، ولو أنه استخدم المنهج الموضوعي المحصولي لكانت دراسته أعظم فائدة ، فالقارئ في جغرافية الصناعة يهمه أن يعرف كيف تتوزع صناعة كصناعة الحديد والصلب مثلا في جهات العالم المختلفة • وأين يوجد مركز ثقلها ، ولماذا قام في هذه الجهة أو تلك ، والمكانة التي تتمتع بها هذه الصناعة في الدول المختلفة ، وكمية الانتاج العالمي منها ، وتوزيعه وتسويقه ، والمشكلات الطبيعية والبشرية التي تقف في سبيل نمو الصناعة ، والوسائل التي تتبع في التغلب على هذه المشكلات ، الى غير ذلك من النواحي التي تهم دارس الجغرافية الاقتصادية أكثر مما يهمه أن يعرف أن في الجزر البريطانية ثماني مناطق صناعية لكل منها خصائصها ولكل منها صناعاتها المتميزة

أما في القسم الثالث من الكتاب الذي يتناول التصنيع في الدول النامية فقد عاد المؤلف الى المنهج الأصولي ، وان لم يتخل عن اقليميته في بعض الأحيان : ويعالج هذا القسم مشكلات التصنيع في الدول النامية ، ومحاولات هذه الدول لاعادة التوازن بين الانسان وأرضها عن طريق التصنيع ثم ينتهي في الفصل الأخير الى دراسة الصناعة في الجمهورية العربية المتحدة ، ويبدأ بعرض تاريخي لأحوال الصناعة في البلاد منذ أوائل القرن العشرين ، ويوضح أثر الحربين العالميتين في قيام بعض الصناعات المصرية ، ثم يتناول الصناعة على عهد الثورة التي عملت على تدعيم الاستقلال السياسي عن طريق الاستقلال الاقتصادي ، والمشكلات التي واجهتها وهي تحاول بناء مجتمع سليم يتمتع بالرفاهة الاقتصادية في ظلال الكفاية والعدل •

وبعد •• فان من النوافل بعد أن عرضنا كتاب « دراسات في جغرافية الصناعة » أن نقول أنه يسد فراغا في المكتبة العربية التي لا تزال في حاجة الى جهود كثيرة مخلصة تعمل على اثرائها وبخاصة في الموضوعات التي أصبح اهتمام القارئ العادي بها لا يقل عن اهتمام الدارس المتخصص • وقد بذل الدكتور فؤاد محمد الصقار جهدا كبيرا في هذا السبيل لا يسعنا الا أن نحمده له ونشكره عليه •

دكتور محمد محمود الصياد

تحويل الماء الملح

إلى ماء عذب

تأليف

يوسف مصطفى الحارونى

عرض ونقد

دكتور مهندس أنور محمود عبد الواحد

يغطى الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية تقريبا. ويقدر أهل العلم حجم الماء الموجود على الأرض بحوالى ٣٢٠ ميلا مكعبا ، يوجد ٩٧ فى المائة منها فى المحيطات دون أن تكون صالحة مباشرة للشرب ، كما أن درجة ملوحتها تجعلها غير صالحة للرى . ويوجد اثنان فى المائة من جملة هذه المياه بهيئة متجمدة فى الأصقاع الباردة الشمالية والجنوبية . والنسبة الضئيلة المتبقية، وهى واحد فى المائة هى وحدها التى تصلح للشرب والرى ، ولكنها غير موزعة توزيعا متساويا ، كما أنها لا تستغل بالكيفية الملائمة. وعلاوة على ذلك ، ففى المناطق التى يتوافر فيها الماء ، يقوم الانسان بتلويثه عن طريق المجارى والمصارف الصناعية التى يصرف فيها الماء دون معالجة تخلصه مما يلوثه . وفى الواقع ان الأغراض الصناعية تستهلك قدرا كبيرا من

الناشر : دار القلم
١٤٣ صفحة ١٧×٢٤
٣٠ ص

المياه . فتكرير برميل واحد من البترول يستلزم ٧٧٠ جالونا من الماء ، فى حين يستهلك انتاج طن واحد من الصلب ٦٥,٠٠٠ جالون من الماء ، وانتاج طن واحد من المطاط الصناعى يتطلب ٦٠٠,٠٠٠ جالون من الماء .

وتبلغ مساحة الأرض التى أمكن توفير الرى لها فى العالم أجمع ٢٣٨ مليون فدان فقط ،وهذه الصحارى الشاسعة التى لم يتهيأ لها الماء فظلت المساحة لا تزيد على ٢ فى المائة من مساحة جدباء قاحلة لا زرع بها ولا حياة . فلا عجب أن نشطت الدول المتقدمة والنامية لتعمير صحاريها عن طريق البحث الدائب عن مصادر المياه العذبة المتاحة .

وعلى ذلك فان مشكلة الحصول على الماء الكافى هى من المشاكل الضخمة المحيرة التى واجهت وتواجه الانسان ، وستظل تواجهه وتحيره بطريقة متزايدة فتتحدى قدراته الابتكارية وبحثه الدائب الملح للحصول على الماء العذب وتنظيم الافادة الكاملة منه . لذلك فانه قد افتن فى بناء الخزانات واقامة السدود وتنفيذ المشروعات المائية وتقنين المياه حرصا على كل قطرة من هذا الكنز الثمين . ولكن المصادر الطبيعية للماء العذب لا تمثل – كما رأينا – سوى نسبة ضئيلة من جملة الماء المتاح فى العالم . وهذه الحصة المتواضعة قد أخذت تقصر رويدا رويدا عن أن تفى بالحاجة المتزايدة الى هذا الماء لتوفير أسباب الحياة للأعداد المتضخمة من البشر وأنواع الحياة الأخرى على سطح الأرض ، ولمواجهة الأغراض العديدة التى ابتكرها الانسان وهو يمضى قدما فى مدارج الحضارة ويزيد تنعما ليحقق هدفه الخفى من السعادة والرفاهية . وليس تزايد استهلاك الانسان للماء العذب مع ارتقائه وتحضره أمرا مبالغا فيه . فالانسان البدائى أو البدوى يستهلك يوميا بضعة لترات من هذا الماء ليشرب وينضج الطعام ويسقى النسل والأنعام والحرث . ولكن الفرد فى المجتمع المتحضر يستنفد أضعاف هذه الكمية فى أغراض أخرى غير مباشرة . فكل سلعة أو مادة يشتريها أو يحوزها ، وكل آلة أو جهاز يديره أو يتمتع به ، قد ساهم الماء فى صناعته ونقله وصيانته. لذلك تعمد الدول الى قياس معدل استهلاك الفرد فيها بما يعرف باسم « الدليل المائى » ، وهو ناتج قسمة ما تستهلكه الدولة فى اليوم الواحد من الماء على عدد السكان . وعلى سبيل المثال فان الدليل المائى للفرد فى الولايات المتحدة الامريكية هو ٦,٦ مترا مكعبا فى اليوم . ويعتمد الدليل المائى الى حد كبير على عاملين أساسيين أولهما جو المنطقة ، وثانيهما درجة التصنيع ، فبقدر ما فى الدولة من نواحى النشاط الصناعى بقدر ما تستهلك من الماء .

والكتاب الذى نتناوله فى هذا المقال عرض ممتع ومبسط لأساليب تحويل الماء الملح الى ماء عذب . ولقد أراح السيد المؤلف نفسه فلم يلجأ الى المصطلحات التى يجهد أو يتفنن المترجمون العرب فى وضعها لتقابل المصطلح الانجليزى (desalting) ، فهم يقولون « اعذاب الماء » و « تعذيب الماء » و « تحلية الماء » ، و « ازالة الملوحة » أو « ازالة الأملاح ». والمصطلح الأول هو فى رأينا أقرب تلك المصطلحات الى الدقة والذوق ، وبه يأخذ الكثير من أهل العلم العارفين بأصول اللغة . أما « تعذيب » الماء فمصطلح لا نميل اليه ، فلا يذهبن بأحد الظن الى أن الانسان قد لجأ الى « العذاب » يصبه على ماء البحر ليخلصه مما فيه من أملاح . كذلك فان « تحلية » الماء تقترن فى الأذهان مع ما نضيفه من سكر وغيره اليه لتزداد حلاوته .وعلى ذلك فانه مصطلح لا يتصف بالدقة الكافية فى العرف الاصطلاحى الشائع . ومصطلح « ازالة الملوحة » يكاد يكون الترجمة الحرفية للمصطلح الانجليزى ، الا انه يتكون من كلمتين ، والأفضل هو الاستقرار على مصطلح عربى من كلمة واحدة مقابل المصطلح الاجنبى الواحد .

وأقدم الطرق المعروفة لتحويل الماء الملح الى ماء عذب هى طريقة التقطير الشمسى • ويتكون جهاز التقطير الشمسى فى أبسط صوره من حوض تكسى أرضيته بطلاء عازل أسود ليمتص أكبر قدر ممكن من الاشعاع الشمسى ، ويغطى الحوض بسقف مائل من الزجاج أو (البلاستك) الشفاف ينفذ أشعة الشمس فتبخر طبقة الماء المالح الموجودة فى الحوض • ويرتفع البخار فيقابل السقف البارد نسبيا ويتكثف الماء العذب على السطح الداخلى للسقف ، ويسيل الى حيث يتجمع فى قنوات خاصة تحمله الى مستودع الماء العذب •

وتختلف فاعلية هذه الطريقة حسب الموقع الذى يوجد فيه الجهاز وما اذا كان مثلا فى منطقه مشمسه أو تكاد تكون محرومة من الشمس ، كذلك تختلف فاعليتها على مدار السنة فهى فى فصل الصيف أعلى منها فى فصل الشتاء ، كما تعتمد على طول النهار ، ومعدل صحو الجو ، وشفافية الهواء ، ودرجة حرارته ، ومقدار ما به من رطوبة ، وسرعة الريح • ولرفع التقطير الشمسى تركز الجهود فى زيادة فاعلية الجهاز المستخدم فى ذلك • ويمكن تقسيم مجالات تطويره الى ثلاثة أقسام رئيسية، هى طبيعة المواد المستخدمة فى صنعه ، وشكل الجهاز وتصميمه وتوجيه الأسطح المهيئة لاستقبال الاشعة ، وعمق طبقة الماء المعرضة للتبخير • أما بالنسبة للمواد المستخدمة فى صنع الجهاز فان الزجاج وبعض الانواع الخاصة من اللدائن (البلاستك) هى أكثر المواد شيوعا لهذا الغرض • وقد تعالج أسطح هذه المواد لزيادة فعالية انفاذها لأشعة الشمس الا أن طرق المعالجة ما زالت مرتفعة التكاليف • ومن الأفكار التصميمية لهذه الاجهزة محاولة تتبع حركة الشمس من المشرق الى المغرب ليتلقى الجهاز أكبر قدر من الاشعة خلال أطول مدة ممكنة من فترة ظهور الشمس • ويتم ذلك عن طريق وسيلة تحرك الجهاز أوتوماتيا بحيث توجهه دائما ناحية الشمس وبحيث تكون أشعة الشمس عمودية دائما على سطح السقف الشفاف

ولكن تكاليف مثل هذه الوسيلة لاتبرر استعمالها بطريقة اقتصادية • ويكتفى عادة بأن يكون غطاء الجهاز على شكل نصف دائرى أو مضلع • وبالنسبة لعمق طبقة الماء المعرضة للتبخير فقد يتبادر الى الذهن انه كلما رق هذا العمق يسهل تبخير الماء ، ولكن التجربة والبحث اثبتا أن انتاج الاحواض العميقة أكثر استمرارا وتجانسا من انتاج الاحواض الضحلة • ولقد وجد أن أنسب عمق لطبقة الماء هو ٣٠ سنتيمترا •

ولقد لقيت فكرة التقطير الحرارى اهتماما بالغا من الباحثين فى مجال تحويل الماء الملح الى ماء عذب • فنحن نعرف أن ماء البحر الى ماء عذب • فنحن نعرف أن ماء البحر هو محلول ملحى مخفف ، أى ماء عذب مذاب فيه قدر من الأملاح المختلفة • فاذا سلط مصدر حرارى على هذا المحلول فانه يغلى ويتصاعد بخار الماء النقى الذى يمكن تكثيفه على سطح بارد ثم تجميعه • أما الأملاح والأجسام الصلبة الذائبة فى المحلول فانها غير قابلة للتطاير وبذلك تتخلف فى وعاء التقطير • وفى الواقع يتحكم عاملان أساسيان فى طريقة التقطير الحرارى ويحددان فاعليتها وكفاءتها ، أولهما ترسب الأملاح على هيئة قشور داخل وعاء التقطير مما يقلل من فاعلية التقطير ويؤثر على سلامة الجهاز ، وثانيهما هو كمية الحرارة المستخدمة فكلما قلت كمية هذه الحرارة بالنسبة لما تنتجه من الماء العذب تزيد كفاءة العملية وتقل كلفتها • ويمكن اللجوء الى عدة وسائل لمنع تكون القشور أو الاقلال منها ، على أن يراعى فى أى من هذه الوسائل سلامة الجهاز وخفض تكاليف الانتاج أو عدم زيادتها على الأقل • فمن هذه الوسائل تصميم وحدات الجهاز بحيث لا تتهيأ الفرصة لتكون القشور فيها • ولقد وجد أن استخدام السطوح الملساء فى هذه الاجهزة وعدم احتجاز الماء فيها لفترة طويلة نسبيا يؤدى الى الاقلال من تكون القشور• كذلك فمن هذه الوسائل ازالة الاملاح التى تتسبب فى تكون القشور قبل اجراء التقطير ، وهو ما يسمى بازالة عسر الماء • وتستلزم هذه

الوسيلة استنفاد كمية كبيرة من المواد الكيماوية لذلك فانها باغلية التكاليف ولا تستخدم غالبا الا اذا كان هناك مبرر اقتصادى آخر كاستغلال الأملاح الناتجة • ووسيلة ثالثة هى المعاملة الحمضية لماء البحر ، كأن يضاف اليه حمض الكبريتيك • ولكن هذا الحمض قد يؤدى الى تآكل الاجزاء المعدنية فى الجهاز ما لم تتخذ الاحتياطات الكافية • لذلك فكر البعض فى استعمال حمض ضعيف مثل حمض الستريك (الليمونيك) • الا أن تكاليفه الاقتصادية المرتفعة تحول دون استخدامه على نطاق الانتاج الكبير وتجعله مقصورا على النطاق المعملى • ومن الوسائل المستخدمة كذلك اضافة بعض المواد التى تؤخر أو تعوق هبوط الرواسب ، فتظل معلقة فى المحلول لحين التخلص منها ، ومنها أيضا التحكم فى عملية الترسيب ذاتها بحيث لا تتاح الفرصة لتكون القشور التى تلتصق بالسطح الداخلى للجهاز • **ولقد وجد أن التقطير الحرارى البسيط ، أى الذى يتم على مرحلة واحدة فيه مضيعة وتبديد لكمية كبيرة من الطاقة الحرارية ، مما يرفع من تكاليف العملية ويجعلها غير اقتصادية وخاصة أن الغرض منها هو تحضير الماء العذب الذى يجب أن يكون رخيصا ليتفق مع استعمالاته الواسعة•** لذلك فقد ابتكرت أجهزة التقطير متعددة الفعالية ، أو متعددة المراحل ، التى يستهدف فيها تحقيق أكبر نسبة من الفائدة من الوقود الذى تستهلكه والاقلال من نسبة الفاقد من الطاقة الحرارية الى أقل ما يمكن • ويتركب جهاز هذه الطريقة من عدد من وحدات التقطير المتتابعة ، الاولى منها وحدة عادية يدخل اليها ماء البحر فيسخن بمصدر حرارى ، ثم يوجه البخار الناتج من التبخير فى هذه الوحدة الى وحدة تقطير ثانية يؤدى فيها هذا البخار دور المصدر الحرارى • وبذلك يستفاد من هذه الحرارة فى تسخين وتبخير كمية اخرى من ماء البحر فى الوحدة الثانية ، ويوجه البخار الناتج منها الى وحدة ثالثة ، وهكذا تتعدد الوحدات وتتعدد فعالية البخار • ومن الواضح أن انتاج الماء العذب لاينتج على مراحل وانما على دفعات ، فتخرج دفعة الوحدة الاولى من داخل الوحدة الثانية ، ودفعة الوحدة الثانية من داخل الوحدة الثالثة ، وهكذا.

ومن الواضح كذلك أن البخار الخارج عن كل وحدة يكون اضعف من بخار الوحدة ، التى سبقتها ، حتى اذا بلغ ضعف البخار حدا لايسمح باستغلاله كثف فى النهاية داخل مكثف عادى .

ومما سبق نرى أن فى طرق التبخير التى أشرنا اليها يسخن ماء البحر ويبخر فى مكان واحد هو وعاء التبخير ، ثم يتم التكثيف بعد ذلك فى مكان آخر . ولكن **فى طريقة التبخير الوميضى يسخن ماء البحر أولا دون أن يسمح له بالغليان فى مكان التسخين ، بل ينقل الى غرفة للتبخير يكون فيها الضغط مخلخلا ،** فما ان يقابل ماء البحر المسخن هذا الضغط المنخفض حتى يتصاعد عنه البخار فيلاقى سطحا باردا فى الجزء العلوى من غرفة التبخير ويتكثف عليه ويسيل ماء عذبا يتجمع فى حوض تحت السطح البارد . ولما كان البخار يتطاير ، وهو ما يسمى بالفعل الوميضى ، فى هذه الغرفة عن غير طريق التسخين فان الاملاح التى قد تترسب لا تكون قشورا كالتى تلتصق بسطوح التسخين فى حالة التقطير العادى . وكمية البخار التى تتطاير عن ماء البحر المسخن المدخل الى غرفة التبخير تتناسب مع الضغط المنخفض الموجود فى هذه الغرفة ، ويبرد ما يتبقى من ماء البحر . فاذا ادخل هذا الماء الى غرفة تالية يقل فيها الضغط عن الغرفة الاولى تتطاير كمية أخرى من البخار بقدر ما يسمح به الضغط المنخفض الجديد ، ويكثف البخار فى الوحدة الثانية ثم يجمع ما يتبقى فيها من ماء البحر الى وحدة ثالثة اقل ضغطا من الوحدتين السابقتين .. وهكذا تتعدد وحدات الوميض بالتخفيض المطرد للضغط وبالتالى الهبوط المتسلسل لدرجة الغليان .

والفكرة الاساسية فى طريقة التقطير بكبس البخار هى توجيه البخار الذى يتصاعد من ماء البحر المسخن الى مضخة جانبية حيث يكبس ، ثم يوجه البخار المضغوط الى مكثف ذى ملفات، فيتكاثف البخار على الملفات مسخنا ماء البحر

الذى يمرر فيها الى درجة الغليان ، ويوجه البخار الناتج مرة أخرى الى المكثف ليقوم بعمل الوقود، وهكذا . والسبب فى زيادة ضغط البخار هو رفع درجة حرارته فيعلو مستواه الحرارى عن مستوى غليان ماء البحر وعن السطوح الساخنة للمكثف . والطاقة المبذولة أو المستخدمة فى هذه العملية عبارة عن طاقة ميكانيكية أو كهربائية لتشغيل المضخة ، تتحول الى طاقة حرارية فى البخار المضغوط .

وفى طريقة التقطير بالكبس الوميضى يستفاد من كل من فكرة التقطير بالكبس وفكرة التقطير الومضى . فيرفع الضغط قليلا عن الضغط الجوى فى مكان التسخين ويسحب الماء عند درجة ١٠٠ مئوية ، وهو فى هذه الحالة لا يغلى حيث أن الضغط الواقع عليه اعلى من الضغط الجوى ، ثم يوجه الى غرفة التبخير حيث يكون الضغط فيها هو الضغط الجوى فيتطاير البخار

واذا كانت طرق التقطير السابقة تشترك فى ان الماء العذب يفصل على هيئة بخار ثم يكثف ، فان طريقة الانتشار الغشائى ، أو الديلزة الكهربائية electodia ysis ، تعتمد على التخلص من الاملاح ذاتها لتترك لنا الماء عذبا سائغا . فمن المعروف أن الاملاح تنشق أو تتأين فى محاليلها الى أيونات موجبة هى الايونات المعدنية ، وأيونات سالبة هى الايونات الحمضية فاذا مررنا تيارا كهربائيا فى الماء المالح ، تتحرك الايونات الموجبة ناحية القطب السالب ، وتتحرك الايونات السالبة ناحية القطب الموجب . ويمكن اقتناص هذه الماء فلا ترتد الى الماء بعد تنقيته عن طريق أغشية خاصة ، وهى على نوعين: أحدهما بينهما عدد من تلك الأغشية مرتبة ترتيبا تبادليا، طريقة الديلزة الكهربائية يتكون الجهاز من وعاء يحتوى على قطبين (الكترودين) ، ويوضع أى غشاء من النوع الاول ثم غشاء من النوع الثانى ، وهكذا، بحيث تتكون منها خلايا متعددة داخل الجهاز . فاذا أدخلنا الماء الملح فى الجهاز وأمررنا تيارا كهربائيا مستمرا بين القطبين يحتجز النوعان الغشائيان الايونات الموجبة والايونات يسمح بنفاذ الايونات السالبة . وعلى ذلك ففى يسمح بنفاذ الايونات الموجبة ، والنوع الثانى السالبة . ولما كانت الايونات الموجبة والايونات السالبة تتحركان فى اتجاهين متضادين ، فاننا نجد أن الخلايا تتعاقب فيما بينها فتحتوى احداها على ماء عذب وتحتوى الاخرى على ماء قد تضاعف فيه تركيز الاملاح وهكذا . ويمكننا اذن أن نوصل خلايا الجهاز الى أنبوبتين احداهما تجمع الماء العذب ، والاخرى تجمع الماء المتضاعف الملوحة .

وفى طريقة التجميد المباشر يمرر ماء البحر خلال مبدلات حرارية **تغير من برودة نواتج الجهاز من الماء العذب والماء المتخلف** (كما سنرى) وذلك حتى يغذى ماء البحر وهو أبرد ما يمكن الى وعاء للبلورة ليسهل تجميده . وفى وعاء البلورة يقابل ماء البحر ضغطا منخفضا يبلغ حوالى ٠٠٠٥ر٠ من الضغط الجوى ، ويمثل هذا التفريغ يسبب التبخير السريع لجزء من الماء ليملأ هذا الفراغ . ولما كان التبخير يحتاج الى حرارة وكان وعاء البلورة مغلقا بطبقة عازلة للحرارة ، فلا يكون هناك مفر من سحب الحرارة المطلوبة من ماء البحر ذاته ، وبذلك تزداد برودته الى درجة التجمد . وهكذا نجد أن الماء المغذى الى وعاء البلورة ينقسم الى بخار يتطاير ساحبا للحرارة وماء يتجمد نتيجة فقد هذه الحرارة . أما البخار فيسحب باستمرار عن طريق مضخة حتى يهيىء التفريغ اللازم لموالاة التبخير ، ثم يولج هذا البخار الى وعاء صهر الثلج فيتكاثف معطيا لماء عذب ، وفى الوقت ذاته يلفظ عنه حرارة التكثيف التى تصهر الثلج لتحيله الى

ماء عذب يجمع هو الآخر • وأما الثلج المتكون فيسحب من وعاء البلورة على هيئـــة بلورات صغيرة معلقة فى المحلول الملحى المتخلف ، وبعد تصفيته وغسله من هـذا المحلول الملحى يدخـل الثلج الى وعاء الصـــهر حيث يفيد من حرارة تكاثف البخار • وبطبيعة الحال يكون المــاء العذب الناتج كما يكون الماء الملحى المتخلف من عملية البلورة فى درجة حرارة منخفضة ، ولقد سبق أن ذكرنا أنهما يخرجان عن طريق مبدلات حرارية حتى يبردا ماء البحر الداخل الى الجهاز •

وهناك طرق أخرى تعتمد كذلك على التجميد لتحويل الماء الملح الى ماء عذب ، مثل طريقـــة التجميد المباشرة باستعمال البوتان المســال ، وباستعمال الهيدرات •

وكل الطرق الســابقة قــد خرجت من حيز المعامل والنطاق التجريبى الى أجهزة ووحـدات انتاجية تتفاوت فى الحجم والســعة • وهناك طرق أخرى لاتزال تمر بدور التجريب ، وبعضها فى سبيله ليكون طرقا انتاجية اقتصادية • ومن هذه الطرق : الاستخلاص بالملايبات ، والترشيح الفائق ، والأزميونية المأخوذة من لفظتى أزموزية وأيونات ، وتتطير الضغط الحرج ، والاستخلاص بالتبادل الأيونى ، والفصــل الايونى بالاقطاب المسامية ، الخ •• وكل هذه الطرق المستحدثة مشروحة شرحا وافيا فى الكتاب ، وتفتـح آفاق التفكير والتأمل أمام القارىء المتفهم الواعى •

ولا نحسب أن هذه الخلاصة لكتاب « تحويل الماء الملح الى ماء عــذب » تنقع غلة المتعطش الى الاستزادة من هذا الموضـــوع الذى يعتبر من موضوعات الساعة فعلا وعملا • ولكننا نقـدم الكتاب ذاته فى ثقة واطمئنان الى كل من يتوخى الثقافة الفنية الرفيعة والعرض الواعى الأمين •

ولقد كنا نود أن يتناول الســيد المؤلف فى كتابه مشروعات اعذاب المــاء الملح فى الشرق العربى ، ونحن نعلم أن دولة الكويت قد ضربت بسهم وافر فى هذا المجال • كما أن هناك بحوثا مشوقة فى الجمهورية العربية المتحدة لاستخلاص الماء العذب من ماء البحر ، وخاصة فى المناطق التى يشح فيها الماء العذب أو يكاد ينعدم •

كما كنا نود أن يلحق السيد المؤلف بكتابه قائمة بالمصطلحات الفنية التى أوردها • وهذا رجاء نوجهه فى الواقـع الى جميـــع الزملاء الذين يؤلفون أو يترجمون فى المجالات العلمية والفنية والصناعية • ذلك أن الجهود المضنية ، وأقول مضنية وانني أعلم صدق ما أقول ، التى تبذل فى تعريب المصطلحات العلمية تكاد تتلاشى مع اخراج الكتاب الى حيز الوجود • **وليس من شك أنه فى حرص كل مؤلف ومترجم على اثبـــات قائمة بالمصطلحات فى نهاية كتابه اسهاما فعالا منه فى مجال الاسلوب الفنى العربى ، وتجميعا للجهود البناءة التى تبذل فى هذا المضمار ، وهداية لمن يرتادون بعد ذلك سبل هـــذه العلوم ، فنوفر عليهم ابداع مصطلحات عربية جديدة قد تختلف عما أورده الرواد السابقون** ، فتوقع القارىء فى الحيرة واللبس ، ناهيك عما يستشعره من قصور اللغة العربية عن مسايرة العلوم الحديثة • وهو قصور لغتنا الرفيعة منه براء • ولغة القرآن هى اللغة التى تتحدى الزمن وتساير ركب الحضارة وتصعد الى حيث تستطيع الانسانية أن ترتفع بها فى مدارج الرقى والرفعة والخلود •

د • أنور محمود عبد الواحد

الإسلام و الاشتراكية

عرض ونقد

د. حسين فوزي النجار

تأليف : ميرزا محمد حسين
ترجمة : د. عبد الرحمن أيوب
مراجعة : علي ادهم

في عالم تتناحر فيه القيم وتشتبك الآراء وتتلاحم المعتقدات والمذاهب ، ينوء بسعى الانسان بحثا عن ذاته ووجوده وحقه في حياة كريمة ، فيتشعب به البحث وراء الحقيقة التى تضفى على حياته نوعا من الراحة ، وعلى وجوده نوعا من الامن ، وعلى عقله الذى لا يهدأ نوعا من الهدوء يثوى فيه الى حقيقة يؤمن بها ويجد في الايمان بها مستقر نفسه من القلق، فالانسان حين يؤمن وان كان على ضلال يجد في الايمان بشيء ما فرارا من القلق والخوف ، وانتجاعا لأمل يحفزه على التفتح والانطلاق في حرية لايحدها غير طبيعة المجتمع الذى يعيش فيه وتقاليده ومدى ايمانه بطبيعة هذا المجتمع وتقاليده ، فالايمان بشيء ما ، أوحقيقة معينة ، لاينمو الا بالايمان بقيم وتقاليد اجتماعية قائمة فعلا ، أو ينشدها الانسان ليكتمل وجوده الاجتماعى . وكيانه السياسى الذى يحكم وجوده الاجتماعى ويسيره، فحين يبحث الانسان في وجوده الاجتماعى وغايته ، يرتد الى حقيقة خالدة لا تقف على عصر دون عصر ، ولا تمتد الى زمن دون زمن ، وانما تمضى مع الانسان عبر الزمن وعبر وجوده الاجتماعى ليراها في الحياة الطيبة ، الحياة الطيبة ، كما ينشدها

الضمير ، ويقبلها العقل ، ويؤيدها منطق الاجتماع ، وبالرغم من ثبات هذا المعنى على الزمن، فان القيم العقلية والفكرية والتقاليد الاجتماعية غالبا ما تطبع هذ المعنى بالصورة والايحاء الذى يضفى عليها هذا المعنى فلا يدرك الانسان من تناقض مالم تتعرض القيم التى كونها لنفسه للخلل أو الاضطراب فيبرز التناقض ليوحى بقيم جديدة تحقق الحياة الطيبة ٠

فالحياة الطيبة هى الغاية التى ينشدها الانسان منذ الخليقة ، وجدها انسان الكهف فى الغريزة التى تدفعه الى نفس النوع ليكون أسرة ، ووجدتها الأسرة فى التعاون مع غيرها من الأسر لحماية نفسها ، ولتحقيق الاكتفاء الذاتى لاشباع مطالبها بما يشبه قانون تقسيم العمل ، فى مجتمعنا الحديث . ووجدتها العشيرة فى حوافز الامن والسلام التى تحملها على الانتماء لمجتمع أكبر هو مجتمع القبيلة ، ثم مجتمع الدولة حين يبلغ الانسان درجة من التمدين تحمله على الانتماء لمجتمع أكبر ٠ كما وجدها فى البداية فى اشباع مطالبه البدنية والجنسية ، فلما تقدم وجوده الاجتماعى ، أخذت هذه المطالب تتشبع بقيم وآراء كونها لنفسه ورأى فيها تنظيما لمطالبه وحاجاته ٠

الا أن الانسان كما يحكمه وجوده الاجتماعى ، تحكمه غرائزه وميوله وتكشف حوافزه عن اتجاه غرائزه وميوله الفطرية أو المكتسبة ، فيبدو الخلل فى وجوده الاجتماعى نتيجة اضطراب غرائزه وتضارب ميوله ، وتبدو الحاجة الى السلطة ضرورة تحكمها الحاجة الى تنظيم الغرائز والميول تنظيما يتلاءم مع الوجود الاجتماعى ، وقد لا تكون هذه السلطة مادية يدين لها الانسان بالطاعة والولاء اللذين يحكمهما القانون الطبيعى أو القانون الوضعى ، وانما تكون سلطة عقلية تقدم على الوازع النفسى خوفا من سلطة عليا تحكمها قوة قاهرة تسيطر على وجوده الانسانى كما تسيطر على مصائر البشر ، فينشأ الوازع الدينى مشوبا بالخوف والرجاء ليكون سندا للوازع المادى فى حماية المجتمع ، فتختلط السلطتان، وتبدو السلطة المادية مغلفة بالوازع الدينى ، فكان الملك المؤله صورة للكاهن أو الساحر الذى يسترضى الآلهة ويدفع نقمتها عن البشر ، فلما ارتقى الانسان ، كانت الاديان السماوية ، فى بعض البقاع كالشرق الادنى ، والفلسفات الدينية فى بقاع أخرى كالهند والصين تعبيرا عن هذه الحقيقة الخالدة التى يجد الانسان سعيا وراءها وهى : الحياة الطيبة ، بكل ما تحمل من سمو فى الفكر ومثالية فى الاخلاق ، ويصبح الوجود الاجتماعى مرتبطا بتلك القيم الفكرية والاخلاقية التى تحقق حياته الطيبة ٠

فاذا بدا الاضطراب أو الخلل فى تلك المجتمعات التى تحكمها عقيدة دينية أو فلسفية ، بدت حاجة الانسان الى فكر جديد يحكم حياته الاجتماعية بل والسياسية ، فتنشأ المذاهب السياسة بديلا للمذاهب الدينية ٠ بل وتذهب أحيانا الى الطعن فى العقيدة الدينية وتجريحها واتهامها بأنها تعوق الفكر الانسانى عن التفتح والانطلاق نحو حياة أفضل هى الحياة الطيبة التى ينشدها منذ الخليقة ، وكثيرا ما يخلط المفكرون بين جوهر العقيدة الدينية والشكل الذى ساد المجتمع فى ظلها ، فيردون كل خلل اليها، وينسون أن مرد الخلل هو ضلال الفكر الانسانى بقصد أو بغير قصد ، لتحقيق منفعة مادية تعود فى الغالب على طبقة من الناس هى التى تحكم ويهمها أن تصور العقيدة الدينية بالصورة التى تبرر نفعها وصالحها ٠ فاذا ثار الفكر الجديد عليها نراه لا يفصل بين جوهر العقيدة والشكل الذى يريده لها الحكام ورجال الدين ٠ وحين يضنى أرباب الفكر الجديد بحثا وراء الشكل الذى يحقق الحياة الطيبة كما يريدونها ، يبدعون النظام الذى يرونه محققا للوجود الاجتماعى المنشود ، وغالبا ما يبحثون عن هذا النظام فى طبيعة الوجود الاجتماعى نفسه والقوى العديدة التى تحكمه ، وتحفز تفكيره الى التغيير ٠ ويكون تعدد أشكال النظرية السياسية بقدر ما يتعدد المفكرون وتختلف صور الوجود الاجتماعى ، فالاتجاه الدستورى فى انجلترا قد أبدع نظرية العقد الاجتماعى على يد « هوبز » لتتلاءم مع نظرية الملكية المطلقة وحوافز الطبقة النامية المتطلعة الى السلطة ، حتى اذا تناولها « لوك » ردها الى اطار الحكم النيابى فى الملكية الدستورية ، والاتجاه القومى قد حمل « بودان » الى تأييده الملكية المطلقة التى تتحد فرنسا فى ظلها لتقضى على الحروب الدينية، والرغبة فى توحيد ايطاليا حملت مكيافللى على مناشدة الأمير القوى

الجسور الذي يحكم دون وازع من الخلق أو الضمير مادام يصل بايطاليا الى الوحدة والازدهار • واتجاه روسو الى الطبيعة كان من أثر السوءات التى حفل بها المجتمع الفرنسى المزدهر فى عصره ، فذهب يرد الى العلم والمدنية كل سوء وينادى بالعودة الى أحضان الطبيعة ، كما كان المذهب النفعى لبنتام وجيمس مل ، تعبيرا عن نمو نمط جديد متميز من الفردية مع النزعة الدستورية الغالبة، والاندفاع الرأسمالى فى مجتمع صناعى متقدم فى انجلترا ، وكانت الاشتراكية المثالية والعلمية على السواء نتاج عصر اختلت فيه الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مجتمع رأسمالى منطلق لا يعرف لغير المال قيمة أو قدرا •

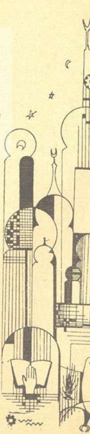
فاذا بحثنا فىهذه المذاهب السياسية والاقتصادية الحديثة على اختلافها نراها ـ وان ضلت المسعى ـ لا تختلف حول الغاية وهى تحقيق الحياة الطيبة للفرد والمجتمع ، فى ظل الدولة أو النظام الذى يكفلها ، الا أن البحث عن هذه الغاية فى مجتمعنا القائم ، قد خضع للفكرالاوربى الحديث بجذوره التاريخية التى تنبثق من مجتمع اقطاعى تسوده الكنيسة ويسوسه أمراء الاقطاع ، بكل ما حفلت به الحياة الكنسية فى أوربا من مساوىء حملت الناس على الثورة عليها ، وظهور مذاهب دينية جديدة أغرقت أوربا فى موجة من التعصب والحروبالدينية لطخت تاريخها بالدماء، وبكل ما شاب الاقطاع من عبودية واستبداد وقيم لم تعدتتواءم مع القيم الجديدة لمجتمع تجارى ينمو متحررا من قيود الماضى الجامد • فنحن ندين ، لأوربا الحديثة بالفكر السياسى والاقتصادى كما ندين لها بحضارتنا الراهنة •

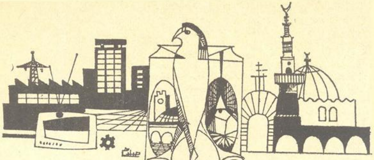
ولم يطرق هذا الفكر الأوربى روح الشرق وحضارته ، وان غلفها بعلمه وثقافته، فقامت حضارة الشرق الجديدة على أسس فكرية وعلمية قذفت بها الموجة الغربية اليه الى جانب ما قذفت به من سخائم النفس الاوربية من الاستعمار الى الاستغلال الرأسمالى البشع الى موجة من الالحاد أطاحت بكل القيم الروحية القديمة وأقامت للمادة صنما عبدته باسم الرأسمالية •

وكانالتلاحم بين روح الشرق ومادية الغرب الطاغية عسيرا لم يخل من الارهاق والعنف ، وان بدا للعلم فيه سلطانا هون من آلام المخاض العسير للعقل الشرقى الجديد ، فارتد فى محاولة رائعة يبحث عن قيم ماضيه العريق يوفق بينها وبين سلطان العلم الاوربى الوافد ، فاذا كان « تدهور الغرب الذى عاصر الازمة الرأسمالية ـ كما يقول ميرزا محمد حسين ، مؤلف هذا الكتاب : الاسلام والاشتراكية ـ يرجع الى عجز المسيحية عن أن تواجه تحدى المادية التى لا تزال حتى اليوم تظلم أفق المعرفة الانسانية • فهل تستطيع أديان الشرق « أن تواجه نفس العبوس المظلم » وهل « يستطيع دينا الهند العظيمان : الهندوكية والاسلام ، أن يثبتا لضغط الروح العلمية الحديثة النافذة بأكثر مما استطاعت مسيحية الغرب ؟ » ثم يمضى فيقول : « ان روح العلم ستذيب بالتدريج ما بقى فى نفوس الجماهير من خرافة وجهل وهذيان » فهل يزعزع ذلك « من قيمة التعاليم الروحية الاساسية التى يبشر بها الدينان العظيمان بين المثقفين والمثقفات الجامعيين الذين سيقودون خلال الجيل أو الجيلين القادمين الحياة السياسية والثقافية والصناعية فى الهند » • وهى فقرات اقتبسها المؤلف من خطاب « لورد لوثيان » فى المؤتمر الدينى الذى عقد بجامعة عليكرة عام ١٩٣٨ ، يقول فيها أيضا :

« يجب ألا يقتصر الدين على اعطاء الانسان المفتاح لحل لغز الكون ، بل
« عليه كذلك أن يبين له فى دقة »
« علمية كيف يتحكم فى القوى »
« الجديدة التى تهدد حياته بالدمار »
« أكثر مما تنفعه ، وكيف يتفادى »
« البطالة وعدم المساواة والاستغلال »
« والظلم والحرب ، وغير ذلك من »
« أمراض المجتمع ويعالج أسباب »
« الخلاف الشخصى والعائلى الذى يهدد »
« سعادة الفرد والانسان بعد أن »
« كثرت المشاكل التى جاء بها العلم »
« وتزايدت دون حل ، ينظر الى »
« الدين يلتمس فيه الهداية بين »
« ظلمات الشكوك والمشاكل • وعلى »
« الدين ـ اذا أراد أن يحتفظ أو »
« يسترجع ما كان له من مكانة ـ »
« أن يقدم حلولا روحية علمية ، »
« تكون بالتالى حتمية النتائج » •

لم ير الشرق فى كل ما جاء به الغرب خيرا ، فقد طالعه أول ما طلع عليه بالحديد والنار ، ثم ثنى بنهب موارده واذلال بنيه ، حتى ذهب بعض كتاب الغرب يتغنى بانها الحرب الصليبية الجديدة التى يحرز فيها النصر ، وكانت الصورة قاسية شوهاء، لا تبشر بأمل فى حياة انسانية كريمة يثمر فيها التعاون بين حضارتين : حضارة جديدة طارئة واخرى قديمة عريقة لها جذورها التى تمتد فى عقل الانسان الشرقى وروحه الى أبعد مايمتد





تاريخه الروحى والثقافى على الارض ، وفى حيرة المواجهة لعالم جديد بكل قيمه وأعرافه تبلبل خاطر الشرق بين المحافظة والتجديد ، ولكن اليقظة كانت أعنف مما تحتملها الأناة ، أو يحملها الصبر ، فسرعان ما امتد الفكر الشرقى الى حضارة الغرب ينقب فيها عن حوافزه للتقدم والاكتمال عله يجد فيها مايدفع به قدما الى ولوج الطريق المستقيم على هدى ميراثه القديم ، وعلى بصيرة تنير له طريق المستقبل ٠ وانتهى به التنقيب الى نمطين مختلفين من الحضارة لهما جذور تاريخية واحدة ، وأساس واحد من العلم التجريبى ، فأما النمط الاول فحضارة رأسمالية « يمكن وصفها ـ كما يقول المؤلف ـ بأنها ديانة اتخذت المال ربا لها » أو « كما يسميها البعض دكتاتورية الدولار » فاذا استلهم كتاب الغرب تعريفا للرأسمالية فهى على حد تعبير «هـ٠ج٠ويلز» : « شىء لا يمكننا تعريفه ولذا نسميه بالنظام الرأسمالى» يرى المؤلف أنها عبارة « موروثة معقدة تعنى عادات سلوكية مقيتة ٠ وطاقة فى جمع المال ليس لها حدود ، وقدرة على استغلال الفرص استغلالا أنانيا ، وتضييعا للحياة الانسانية دون جدوى ولم يتضح خطرها « الا بعد فترة نضجت خلالها ، واستشرت فيها شهوة تكوين رأس المال الفردى دون اعتبار للنتائج السيئة التى تنجم عنه ، وقد استغلت فى طفولتها الطبيعة ثم شبت فاستغلت الانسان وأخلت بالاستقرار الاجتماعى» ٠ وهى حضارة يستشهد المؤلف على وصفها بما كتبه « هنرى ماسى » فى كتابه « دفاع عن الغرب » حيث يقول : « الحضارة الحديثة شر مستطير لأنها تجعل السعادة المادية الغرض الوحيد من الحياة، وهى تسخر الغربيين ، وتفسد الشرقيين ، وتجعلهم جميعا عبيد المال » ٠ وأما النمط الثانى فقد انبثق من النمط الاول وند عنه حين « جاءت الاشتراكية الى المسرح العالمى تحاول تضميد ما خلفته الرأسمالية من جراح » ، ولكن اذا كانت الرأسمالية « نوعا من البربرية، فليست الشيوعية والفاشية بأحسن منها حالا ، لانهما ليستا سوى لونين آخرين من البربرية ، واذا كانت الرأسمالية سرقة منظمة ، فان النظم الجديدة لا تلعب نغمة أخرى » ٠

ولم يجد الشرق فى هاتين الحضارتين ما يسند ايمانه بمثله وتقاليده وأعرافه القديمة فراح يستهدى ثقافته نفع البشرية ويطور حياته على ضوء العلم الى مستقبل أفضل لا تحكمه الرأسمالية الجائرة أو الشيوعية الملحدة ، فكانت المحاولات الدائبة لوضع نمط لحضارة شرقية حديثة تأخذ بالعلم الغربى دون أن تأخذ بتقاليد المدنية التى ينكرها الشرقى بطبعه وتدينه ، فالدين فى الشرق عميق الجذور ، والطبيعة الشرقية تقوم على روحانية أصيلة لا يعرفها الغرب ولم يعرفها فى ماضيه القريب ، فالطبيعة الغربية مزيج غير متوازن من المزاج اللاتينى المتحرر والمزاج النيوتونى الصارم ، وبين هذين المزاجين يتأرجح الفكر فى شتيت من النقائض لا تعرف حدا ، وان تقبلها العقل فى صورتها المادية التى يؤكدها العلم التجريبى ، وما دام العلم قاصرا عن كشف كل أسرار الكون ، فسيبقى العلم التجريبى حافزا على الشك فيما لايدركه العقل من سر الوجود، ويحمله الشك على الانطلاق المادى دون قيد يحول بينه وبين النفوذ الى ما وراء الاشياء من أسرار لم يكشف عنها العلم بعد ٠ بينما تمتد الطبيعة الشرقية بتكوينها الى آلاف السنين ، بل الى

حقب لم يكشف عنها التاريخ بعد ، فحضارة الهند والصين وحضارات الشرق الادنى ، لا نعرفها الا مكتملة قد بلغت من النضج ما يحملنا على الايمان مع « جوستاف لوبون » بانها لم تشب فجاة ولم تنشا فى فراغ بل سبقتها أجيال من التكوين العقلى والعاطفى مهدت لهذا النضوج الذى يطالعنا به التاريخ ، وتركت آثارها فى الفكر الشرقى كامنة فى أعماق اللاشعور ، تلمهه بالحقيقة حين يضل عقله عن ادراكها ، فما يدركه الشرقى باحساسه قد يكون أكثر صدقا مما يدركه الغربى بعقله وتفكيره، والاحساس عندالشرقى ليس استقراء حدسيا لحقائق مبهمة ، ولكنه استقراء لقوة خفية تكمن فى أعماقه وفى عقله الباطن دون أن يدركها عقله الواعى ، أو يجد لها سببا ، والاحساس عند الغربى احساس مادى بكل ما هو قائم وماثل ، فاذا أعوزته الرؤيا المادية لم يسعفه العقل الباطن بالوحى أو الالهام ولقصر تاريخه تبدو صفحته بيضاء من رواسب اللاشعور التى يتركها الماضى بقدمه على صفحات العقل .

وكانت روحانية الشرق وليدة هذا الايمان العميق بأشياء لا تبدو صورتها مرئية ، وان ألهمها الاحساس صدق اليقين ، وهذا الايمان الروحى هو الذى يربط الشرقى بالدين . ويشده اليه شدا عنيفا يهون معه كل شىء الا أن يخبو ايمانه أو يتوارى . فقد وجد فى الدين ملاذا يطامن من نفسه، ويصوغ له قيم حياته وسلوكه .

هذه الحضارة الغربية التى انتهت الى نمطين مختلفين ، وقد أدت الى قيام عالمين مختلفين أيضا يذهب الاختلاف بينهما الى التهديد بحرب ذرية ، لاتذر على الارض من العالمين ديارا .

وفى هذين العالمين ، أو بين هاتين الحضارتين يقف الشرق بقيمه وأعرافه ليرد الى الحياة الدنيا اتزانها الاول ، بعلاج الصورة البارزة للخلل الاجتماعى الذى يدعوه ، مؤلف « الاسلام والاشتراكية » « بالمشكلة الاجتماعية » وهى « مشكلة ـ كما يقول ـ يتسع نطاقها حتى يشمل جميع ألوان النشاط الانسانى من هروب التلميذ الشقى من مدرسته الى مناورات وزير الخارجية ومؤتمر السلام ، وكلمة اجتماعى قد صارت كلمة خطيرة الدلالة فقد أدرك العقل الانسانى أن الحياة لم تعد أمرا بسيطا ، كما كانت حتى فى الماضى القريب ، بل أصبحت محيرة ، عسيرة العقد حتى لقد وصفت بأنها ـ لغز فى داخل سر فى داخل أحجية ـ وليس الاقتصاد والسياسة والاخلاق والدين أمورا ينفصل بعضها عن بعض ، ولكنها جميعا مظاهر مختلفة للنظام الاجتماعى، وهى كلها فاعلة ومتفاعلة ومؤثر بعضها فى بعض ، ومن العلاقات القائمة بينها يتولد ما يعرف بالطابع الثقافى ، ولو اضطربت هذه العلاقات لظهر هذا الاضطراب فى صورة رذيلة اجتماعية أو أخرى » .

هذه المشكلة الاجتماعية يصور المؤلف آثارها فى الفوضى الدامية التى خلفتها الحربان العالميتان الاولى والثانية وانعدم فيهما « التوازن الاجتماعى والسكينة والرصانة ووحدة الهدف ،. . فالى جانب الرأسمالية ومايصاحبها من الربا الفاحش وسوء توزيع الثروة والضعف الاجتماعى ، وكانت كلها موجودة قبل الحرب ـ نشأت عقائد ونظم جديدة فى العالم تبشر بالقتل لابالعلاج وتعمل مطارقها لصنع سلاسل جديدة باسم ـ الخلاص الاقتصادى ـ وقد دلت الاحداث المتوالية ـ بما لايقبل الشك ـ على أن عبودية العصور القديمة قد عادت فى أبشع صورها ، ولم تكن معسكرات الاعتقال ومعسكرات العمل فى ألمانيا ، ومحاولة موسولينى صب الناس فى قالب واحد سوى ظروف تمهد لنشأة أسوأ أنواع العبودية ، أما الدين فقد اختفت أنفاسه بيد الحواريين من المبشرين بالمذهب المادى الجديد ».

ويرى المؤلف أن بذور الكارثة التى تنطوى عليها المشكلة الاجتماعية بصورتها البشعة التى انتهت اليها أخيرا ، انما تكمن « فى الظلم الاقتصادى غير الانسانى » حيث ألقت بالانسان « أنانيته المتطرفة وشهوته التى لا تشبع لتحقيق الكسب فى جحيم من الآلام ، وألقى به شلل عقله وجسده فريسة عاجزة أمام نزعة القومية المتطرفة والاشتراكية الملحدة » . و « حرم الانسان نفسه بنفسه من الرفاهية التى كان يمكن أن تسود حياته بما تورط فيه من حماقة وغباء» ثم يتساءل : كيف يعالج هذا الغباء وتلك الحماقة ؟ ويجيب على هذا التساؤل بأن « الاسلام وحده بما فيه من قوة باعثة للحياة يستطيع خلقيا أن يهيىء الشخصية الانسانية للقيام بما ألقى العلم الحديث على عاتقه من تبعات جسام ، والاسلام وحده كذلك هو الذى يستطيع أن يهب الانسان القدرة على الوقوف فى وجه قوى الشر ، وأن يحتفظ بشخصيته فى الدنيا والآخرة فى حيوية وازدهار ، وهو وحده الذى يمكنه أن ينتصر على التنظيم الصناعى الذى خلقه التنافس الجشع فيحقق للحضارة أساسا راسخا

لاتتصارع فيه القيم الروحية الانسانية».

ويعاود المؤلف النظر الى المشكلة الاجتماعية . والفلسفات الاجتماعية التى قامت لعلاجها فيرى أنها جميعا « مذاهب متنافسة يحقد بعضها على بعض ويسعى اصحابها الى السلطة على جواد من الأزمات القومية المروعة ، فمبدأ الرأسمالية ـ كل انسان نفسه بنفسه وليذهب الآخرون الى الجحيم ـ ومبدأ الشيوعيين ـ خذ من كل انسان حسب قدرته لتعطى كل محتاج حسب حاجته ـ ومبدأ الاشتراكيين ـ ويعنى بها اشتراكية النازية ـ « خذ من كل على قدر ما له لتعطى كل شخص على قدر عمله » ومبدأ الفاشيين « الفرد للكل ، والكل للفرد ، لا شىء خارج الدولة ولا شىء ضد الدولة ، وكل شىء داخل الدولة » .

« والوحدة الاجتماعية فى الشيوعية هى الجماعة ، ومن ثم فهى تحطم العائلة وتسحق حرية الفرد وتركز الصناعة كلها فى يد الدولة ، وبرنامج الاشتراكيين أن يحولوا رأس المال الفردى المتنافس الى رأس مال جماعى موحد ، واذا كان الاستبداد من ناحية، والعلمية والفوضوية من ناحية أخرى نقيضين يؤدى أحدهما الى الآخر ، فان الفردية فى الصناعة تؤدى الى نقيضها الذى يتمثل فى الشيوعية والاشتراكية، وقد صار من الضرورى أن يزول داء الاحتكار وهو قمة النظام الرأسمالى من الوجود ، وكانت الوسيلة الناجحة للقضاء عليه هى الدولة » .

ويسلم المؤلف بأن الكارثة التى تنبض بها المشكلة الاجتماعية ، أو مشكلة العصر كما نفهم من سياق حديثه هى كارثة « الرأسمالية الجشعة » .

وليست « الشيوعية والفاشية » الا رد فعل طبيعى لها ، فيحاول كل منهما ، « خلق نظام اجتماعى جديد بتحطيم ذاتية الفرد وتحويلها الى شظايا » ولن تستطيع « الانسانية ـ كما يقول ـ ان تصل الى تحقيق التوازن بين مطامع الفرد وخير الجماعة الا اذا قدم الاسلام لها قناعة روحية تؤيد النظام الاجتماعى ولا تطغى على ذاتية الفرد ، وهنا ستقول الملايين التى ستشرق عليها شمس الاسلام : اننا أحرار » .

فعلاج الرأسمالية ، والقضاء على مساوئها ـ لا يتأتى عن طريق تلك الفلسفات الاجتماعية المتناقضة ، وان كانت الشيوعية والفاشية قد حاولتا علاج الرأسمالية بخلق نظام بديل ، فقد باءتا بالخسران ، فانتهت النازية والفاشية على يد « ربيبهما مارس اله الحرب » ، ونجت الشيوعية من سعير « الحرب بصعوبة ، مما يشهد لها بالتفوق على المذهبين الاشتراكيين المنافسين لها ، الفاشية الايطالية ، والنازية الالمانية ، ولكن بقاءها مع ذلك لا يزال يواجه كثيرا من المشاكل المعقدة ، ولعل أكبر ما يهدد بقاءها هو نكرانها الشديد لكل ما هو فوق الطبيعة وايمانها العميق بالمادية الارضية . وهذا نقص جوهرى يقعد بها عن أن تكون نظاما شاملا للحياة الانسانية » ... وما من شك من فى أن هذه المثل والمذاهب التى لا تؤمن بالله تحمل فى طياتها عناصر تدميرها»

فاذا كانت هذه الفلسفات الاجتماعية ـ ما اندثر منها وما بقى ـ قد باءت بالخسران فى علاج مساوىء الرأسمالية وفى تحقيق التوازن بين الفرد والمجتمع فان اشتراكية الاسلام هى وحدها الكفيل

بالقضاء على مساوىء الرأسمالية ، اذ عجزت الشيوعية بتنكرها للدين وللقيم الروحية وقيـــامها على الحقد والعنف وتطرفها فى النظر الى القيم الاجتماعية المتوارثة ، عن أن تقوم بخلق هذا العالم المتوازن ٠

ويرتد المؤلف باتجاهه هذا الى ميراث الشرق العظيم فيعبر عن روحه وايمانه، ولا يجد هاديا عن هذا التعبير الا عن طريق الاسلام ديانته التى يعتنقها ، وفى نظرته المجردة يرى أن الاسلام قادر على ما عجزت عنه المســيحية وتعجز الهندوكية بنظامها عن القيام به٠

فمشكلة العصر فى نظره ـ كما هى فى نظر الناس جميعا ـ هى الرأسمالية بأوضارها ومساوئها ، فقد « ظهر ان الحرية السياسية حطمت المســاواة ، وأصبحت الأخوة لفظا طنانا لا معنى له، وأصبحت حرية النشاط الاقتصادى التى انتهت الى منافسة فتاكة ـ كما يقول ـ لاتتفق ومعنيين آخرين من معانى الحرية وهما : التحرر من العــوز ، والتحرر من الخوف ، وكان لهذا أثره السيىء على حياة الناس ، وصحب سوء الحالة الاقتصادية انهيار خلقى سياسى، وأصــبحت الديموقراطيــة حكومة من الرأسماليين يختارها الرأسماليون لترعى مصالح الرأسماليين ، وكان من الطبيعى أن تنسق القوانين لحماية امتيازاتهم ، ونجحت الخطط الشريرة التى رسمت لتحقيق هــذا الغرض ، ولم تصبح الحرية بالنسبة للطبقة العاملة سوى سراب » ٠

ويرى المؤلف أن تنظيما اقتصــاديا يحقق القيم الروحية والاخلاقية للحياة، قد يخلق نظاما اجتماعيا صالحا ، ويبدو أنه يرى فى الاساس النظرى للاقتصاد الشيوعى علاجا لمساوىء الرأســمالية وان كان لا يقبل مبدأ اهدار الملكية الخاصة ، وفى الوقت نفسه لا يسلم بالملكية الاستغلالية أو التى تفيض عن حاجة الانسان ، وان سلم بالحــوافز الفردية للربح حتى لا يكون الحد منها عائقا للقدرة الانتاجية ٠ فكأنه يسلم بنمط من الاشتراكية يرى أنه يتحقق بتطبيق تعــاليم الاســلام الاجتماعية ومبادئه فى الاقتصاد والسياسة ٠ ويبدو قريبا من الاشتراكية العربية ٠

وينبرى بعد ذلك لاثبات رأيه بايراد ما جاء به الاسلام من تعاليم يمكن أن تكون علاجا لمشكلة العصر ، فيتحدث عما دعاه « الحرية ضد عبودية الأجور» فيقول بضرورة العمــل للانسان حتى يكسب عيشــه ، وان تفــاوتت قدرة الانسان ومهاراته مما يؤدى الى «تكوين طبقات اجتماعية متفاوتة » لا ضرر من قيامها ما دامت لا تفرق النــاس الى طوائف متنازعة ، أو تؤدى الى الاستغلال أو تدفع انسانا الى الفاقة والحرمان ، فلو تدخل انسان لحرمان انسان آخر من كسب عيش حلال ، فان ذلك العمل جرم وعدوان على حق الآخرين » ٠ الا أن ما يحدث هو أن العامل اذا وجد العمل ، فانه لا ينال من الأجر ما يتفق مع قيمة عمله الحقيقية وما هو غــير سلعة تباع فى (سوق الأجــور) فانه « يبيع نفسه فى كل يوم لزمن معين بسعر يرضاه ســادته من مالكى المصانع » وتلك عبودية أشد وقرا من عبودية الزمن القديم فبالرغم من انه لا يباع ولا يشترى « فان مما يقزز النفس أن يعرض المرء نفسه للبيع »٠

فاذا عدت الماركسية خطوة متقــدمة للتحرر الاقتصادى بالنسبة للرأسمالية، فان جحودها « للقيم الروحية » يقعد بها عن ان تكون نظاما صالحا للحياة، أما اشتراكية الاســلام حيث « تدور الحياة الاجتماعيــة فى فلك من القيم الروحية ، ولا تعترف بطائفة من النبلاء أو طائفة من عبيد الارض » فهى خير نموذج للحياة الطيبة ٠

واذا كانت الملكية الخاصة هى قاعدة النظام الرأسمالى « التى ينادى المذهب الاشتراكى بازالتها » و « التى أطلقت نزعاتها المخربة تفتك بالمجتمع ، وجاءت الاشتراكية الى المسرح العالمى تحــاول تضميد ما خلفته الرأسمالية » فعمدت الى تحطيم الملكية الفردية « مستعملة العنف اذا لزم الامر » فان « الاسلام كالاشتراكية لا ينظر بعين الرضا الى جمــع الثروات دون مراعاة لصــالح المجتمع٠٠٠ ولكنه يتخذ لنفسه أسلوبا آخر ، ونظامه هو التدرج الاقتصادى الاجتمــاعى الذى لا يتجــاهل خير المجموع » ٠ وقد سمح الاسلام بالملكية الخاصة أو الفردية « من أجل تشجيع الابتكار الفردى» ولكن بشرط ألا تتجاوز الحــــدود « التى تخــل بالتوازن الاجتماعى » ٠ فاذا كانت « الرأسمالية ـ كما يقول مستشهدا بتشرشل ـ هى توزيع الخير على الناس دون مساواة ، فالشيوعية هى توزيع البؤس على الناس بالتساوى ، فلنحاول اذن أن نتخذ نظاما يحقق أكبر خير لأكبر عدد من للناس » ٠ ثم يقرر أن « الدولة هى النظام الذى يكفل تحقيق هذا الهدف»٠ « فملكية الله فى الاسلام لا تعنى غير وصــاية من الدولة لتحقيــق الخير للناس » ٠ ثم يقدر أن « الدولة هى خليفة الله فى أرضه » ووظيفتها هى « حماية الفرد من الحرمان من وســائل الحياة المعقولة ، ومن أى اعتداء على

حقوقه ، والدولة التى تقصر فى تحقيق هذه الارادة لا تستحق الوجود » .

ولا يعنى هـــذا أن المؤلف يدين بنظرية الدولة ، ولكنه يدين بالتوازن الذى تستطيع الدولة وحدها أن تكون ضامنا له ، « فالفاشية تعيش من أجل الدولة » ولكنهـــا قضت على حـــرية الانسان ، ولم تسمح له « الا بما يحفظ عليه حياته ، وهى قبل كل شىء تذيب ذاتيته المستقلة لتصبه فى الجهاز الضخم القوى الشرير الشـــامل الذى يكلف قبوله الانسان ثمنا غاليا » .

ويتحقق هـــذا التوازن طالما بقيت الملكية الخاصة لا تتجاوز الحدود التى تتنافى مع صالح الجماعة ، « فالثروة الزائدة (أو العفو) كما يسميهـــا القرآن لا يصح أن تبقى فى يد مالكها، بل عليه أن يتخلى عنها بطريقة تحقق الخير العام » فالدولة فى نظره ضامن وليست وكيلا ، وهى ممثلة للمجتمع وليست كل المجتمع الذى يقضى على حرية الفرد ويذيب شخصيته .

« وعلى النقيض من المسيحية والبوذية يولى الاسلام الجوانب الدنيوية من حياة الانسان نصيبها من العنـــاية ويضع القواعد لتطهيرها والرقى بها » فحض على السعى وراء الرزق، ووضع القواعد لجمع المال وانفاقه ، ولم يسمح للنشاط الاقتصادى « أن يتحلل من الاعتبارات الخلقية » ، ونهى عن الاسراف ، كما نهى عن التقتير ، وأعظم « مقياس لتقدم الحضارات هو مدى نمو الخير فيها ، والخير يعنى أمرين : احترام (مبدأ) مختلف الآراء حول السياسة والدين، والشعور بآلام الآخـــرين وعجـــزهم ، والاستعداد لتخفيفها عنهم ، والنظرة للحياة على هذا النحو خير تعبير عن الحضارة الراقية » . وهو ما عجزت المذاهب الاقتصادية والاجتماعية للنازية والفاشية والشيوعية عن تحقيقه ، كما عجزت الهندوكية بطقوسها وتعاليمها ، وما تتضمنه من « نظام النبذ الذى يفقد فيه الناس صورتهم الانسانية » عن تحقيقه بدورها ، والمسيحية بزهدها ، واعتزالها ، واشادتها بالفقر ، وخلوها من « أية قوانين ايجابية بناءة للارتقاء بمستوى الفقراء» حتىأصبحت العبودية أمرا لا يتنافى مع القانون المسيحى ، ونصح القديس بولس العبيد بقبـــول الاوضاع التى هم عليها فى صبر » لم تقدم حلا اجتماعيا سليما للمشكلة الانسانية ، كما يشهد بذلك أصحابها، بينما « تلتقى المثـــالية بالواقعية فى الاسلام، وبدلا من أن تتطاحن الدنيوية والروحية وتتهيأ الى الحاد أو شـــك تمتزجان معا فى كل منسجم » . فلا معاناة لحقد أو بخل ، بل نظام اجتماعى واقتصادى تتكامل فيه القوى جميعـــا وتتوازن على حد سواء .

ويرى المؤلف أن الزكاة « نظام قويم للتأمين الاجتماعى ، وهو من قبيل الخير الذاتى الذى لا تفرضه سلطة . كما تفرضه التربية السليمة « لاقامة العدل والمساواة » ، وتؤدى عما « يحققه المال من نماء كما يؤخذ من قول القـــرآن الكريم (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) أى ما زاد من مال الشـــخص عما يحتاج اليه .... وبمقتضى تعاليم القرآن يكون ما زاد عن حاجات المسلم الشرعيـــة داخـــلا الى خـــزينة الدولة المسلمة ، وعليها أن تنفقه على الفقراء والمسلمين » ، وليست الزكاة من قبل « الاحسان الذى تدعـــو اليه الجمـــاعة الرأسمالية » ولا تفرضه القـــوة حين تعمل على ازالة « الفوارق الاجتماعية كما تفعل الشيوعية » ، وهى « أمضى سلاح ضد البؤس الاجتماعى لأن الكيان المدنى لن يكون سليما ، الا اذا قام على أساس اقتصادى سليم » تقـــوم الدولة عليه وترعاه وتنظمه حتى تقوم بمسؤليتها تجاه « المحتاجين من فقراء ومشـــوهين وعجزة وأيتـــام وأرامل وأمثالهم ممن يجدون فى أموالها حقا لهم فيحفظون ماء وجوههم ولا يريقونه بطلب الصدقات » ولن تستطيع الدولة « أن تقوم بهذا العبء الثقيل الا اذا كان هناك الى جانب مواردها العادية ، مورد آخر يتمثل فيما يقدمه الاغنياء فى صورة زكاة » .

ولا يفوته أن يضع الى جانب الزكاة ما تقوم به الشـــيوعية والرأسمالية للتـــأمين الاجتماعى ، ويحـــكم بان الشيوعية أقوم سبيلا فى هذا الميدان من الرأسمالية ، فالنظـــام الشيوعى للتأمين الاجتماعى ــ كما يقول ــ نظام طيب من بعض النواحى فحسب ، وقد يكون نظاما ممتازا اذا ما قورن بالفوضى المتفشية فى الجمـــاعات الرأسمالية ، ولكنه أمر تافه اذا ما قورن بالزكاة التى هى نظام يحقق الضمان الاجتماعى دون أن يتجاهل ذاتية الناس » .

د. حسين فوزى النجار

النظر والمعارف

للقاضي عبد الجبار

عرض ونقد

اسماعيل المهدوى

منذ ثلاثة قرون ، ظهر فى أوروبا فيلسوفان يدافعان عن العقل : ديكارت فى فرنسا ، ثم جون لوك فى انجلترا . أصدر الأول فيما أصدر كتاب « التأملات » وفيه تحدث عن مبدأ الشك ، ومبدأ العدالة فى توزيع العقل بين جميع البشر ، وأنه الطريق الوحيد الى المعرفة . وأصدر الثانى كتابا باسم « بحث فى الفهم البشرى » ، عالج فيه أصول المعرفة ، وقال ان العقل يستخلص أفكاره من الادراك الحسى . وتطورت الفلسفة العقلية بعد ذلك منسوبة فى أصولها دائما الى هذين الفيلسوفين .

واذا حاولنا أن نبحث للفلسفة العقلية عن أصول أسبق فى الزمن ، سنجد أن المعتزلة الاسلاميين فى العصور الوسطى كانوا فى تاريخ الفكر البشرى أول مفكرين طرحوا نظرية متكاملة

الناشر :

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

٥٤٤ صفحة - قطع كبير

عن العقل • ووضع آخر شيوخهم البارزين ، القاضى عبد الجبار ، كتابا أساسيا ضخما فى هذا الموضوع ، يزيد حجمه عن سبعة أضعاف حجم « التأملات » ويعالج من المسائل ما يتخطى نطاق النظرية البسيطة التى ساقها ديكارت فى كتابه•

هذا الكتاب هو « النظر والمعارف» الذى يشكل الجزء الثانى عشر من موسوعة ضخمة فى علم الكلام باسم « المغنى فى أبواب العدل والتوحيد »•

والمؤلف ـ أبو الحسن عبدالجبار الهمدانى المتوفى عام ٤١٥ من الهجرة ـ يلقب بقاضى القضاة ولا يطلق المعتزلة هذا اللقب على أحد غيره • كان قاضى الدولة البويهية فى الرى فى ظل الصاحب ابن عباد ، واعتبروه شيخ المعتزلة وعالمها دون منازع • قال عنه الصاحب : « هو أعلم أهل الأرض » • ويقال انه كتب أربعمائة ألف ورقة فى عديد من العلوم ، أهمها هذهالموسوعة الضخمة المذكورة التى تتكون من عشرين جزءا • اكتشفت احدى البعثات المصرية فى اليمن معظم أصولها المخطوطة ، وأدرك الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين أهميتها ، فأسرع بتكليف مجموعة من الأساتذة بتحقيقها ونشرها • ويبدو أنهم انتهوا من نشر الأجزاء التى عثر عليها • لكن الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى فى تقديمه لأحد أجزاء الكتاب يقول ان هناك ستة أجزاء لا تزال مفقودة حتى الآن •

واذا عرفنا أن المحور الرئيسى لفلسفة المعتزلة هو المنهج العقلى والدفاع عن قدرة العقل وشموله لأمور الدين والدنيا ، تتضح لنا أهمية الموضوع الذى يعالجه هذا الجزء المخصص لنظرية المعتزلة فى العقل • وهو لهذا السبب أضخم وأعمق أجزاء الكتاب • يضم ٥٤٤ صفحة ويشمل ٨٧ فصلا موزعة على ثلاثة أبواب • حققه وقدم له الدكتور ابراهيم مدكور •

ومن المؤسف أن لغة الكتاب قديمة ومعقدة ، وتحقيقه لا يخلو من المآخذ ، وان كان يخلو من الشرح والتعليق • وانما يشفع لمن قام بتحقيقه أن حاجة دارسى الفكر الاسلامى الى مثل هذا



لوك



ديكارت

الكتاب الخطير كانت شديدة الالحاح • فقد أحرقت واندثرت كل نصوص المعتزلة تقريبا ، ولم يعثر الباحثون حتى الآن على نص أساسى يشرح فلسفتهم سوى هذه الموسوعة • فمن واجب المهتمين بالفكر الاسلامى أن يوجهوا أكبر جهد ممكن لدراستها والقاء الأضواء عليها والتنبيه الى خطورتها • ومن واجب المسئولين فى الجامعة وخارجها أن يدخلوا هذه النصوص الجديدة ضمن برامج تدريس الفكر
هذه النصوص الجديدة ضمن برامج تدريس الفكر
الاسلامى • فهى تمثل فى الحقيقة أرقى ما وصل اليه مفكرو الاسلام القدامى من تقدم فى الفلسفة العقلية •

كلمة « النظر » تعنى عند القدمـــاء « الفكر العقلى » •وكلمة « العلم» تعنى « المعرفة اليقينية» أو « معرفة الحق » • والقلب ـ كعضو من أعضاء الجسم ـ يعنى عند بعضهم « الدماغ » ، لأنهم كانوا يتصورون « محل » التفكير ، أو العضـــو الذى يقع فيه التفكير • والمؤلف يركز فى كتابه هذا بشكل خـــاص على فكرة التمركز المكانى للنشاط الفكرى ، ويجعلها أساسا لنظريته التى يسميها «توليد النظر للعلم » ، أى حتمية وصول الفكر العقلى الى الحقيقة •

(أنظر مثلا ص ٨٥ و ٨٩ و ٩١)

ولعل أهم ما يثير الملاحظة فى أفكار المعتزلة أن نظرياتهم فى علم الكلام تجرى على عكس اتجاه نظريات المتكلمين الآخرين • انهم يبدأون بالشك والمنطق ليصلوا الى الايمان بالاسلام • بينمـــا يبدأ الآخرون بالايمان الدينى ليصلوا الى الرد على الشك والمنطق • ومن هنا يحتل المعتزلة مكانا بارزا فى الفلسفة لا فى علم الكلام فقط • يقول القاضى عبد الجبار فى هذا المعنى ردا على المتكلمين الذين يرفضون منهج العقل تمســكا بظاهر بعض الآيات القرآنية :

« الـكلام فى صحة النظر كلام عقلى • وصحة الكتاب مبنية عليه • فلا يصح (الكتاب) الا بعد صحته » • (ص ١٢٧) •

ويقول :

« لا يصح أن يســـتدل بالكتاب على بطلان مالا نعرف التوحيد والعدل الا به •• انما يجب الامتثال لما يدل عليه العقل » • (ص ١٦٣) •

وفى مكان آخر :

« النظر لو لم يولد العـلم ، لما عرفنا صـحة الكتاب أصلا » • و « قد يجوز أن الرسول لم يكن ينظر فى الشرعيات • أما العقليات فلو لم ينظر فيها لما علم مايقتضى كونه رسولا»(ص١٦٩)

ويقول :

« ذكر الآى والأخبار فى هذا الباب لا يفيد ، لأنه لولا صحة النظر لم يفد الكتاب ولا السنة ولم نعرف صحتها • » (ص ١٧٧) •

ثم أنظر هذه المناقشة التى يرد بها المؤلف على دعاة التقليـــد الذين يزعمون أنه لا يجوز للعبد تأويل الآيات ، عملا بقوله تعالى : « وما يعلم تأويله الا الله » • يقول :

« **لسنا** نسلم بأن **الله تعالى خص نفســـه** بالعلم بذلك ، لأنه تعالى **لا يجوز أن ينزل كلاما** وخطابا الا وللمخاطب **طريق الى معرفته • ومتى دل ظاهره على الخطأ فلا بد أن يجعل له طريقا الى معرفة القرينة الدالة على المراد** • » ى

« ولا يجوز على الله تعالى التعمية والالغاز » •• والا •• فكيف « خاطبهم بلسان العرب وفى جملته مالا فرق عندهم بينه وبين الزنجية فى أنه لا يصح أن يعرفوا معناه ؟ وكيف يجوز أن ينزل تعالى كلاما والغرض منه الايمان به دون معرفة معناه ؟ وهل ذلك الا بمنزلة الايمان بصـــوت الرعد وما شاكله ؟ » (ص ١٧٤ ـ ١٧٦) •

ويصل دفاعه عن قدرة العقل الى درجة أن يقول :

« الضرورة لا تفتقر الى قـــول رســـول متقدم » (٣٦٧)

وفى مكان آخر :

« المكلف يجوز أن يقتصر فى التكليف على لتعليقات » ومن الخطأ أن يقال « انه لا بد من شرع » • (ص ٥١٥) •

ولعل هذه الاشارات تكفى لتوضيح مدى جسارة الفلسفة العقلية عند المعتزلة ·

والآن نتتبع أبواب الكتاب وفصوله ·

فى الباب الأول يتناول المؤلف تعريف النظر واثباته · وفى الباب الثانى يسوق الأدلة التى تبين أن النظر مقدور لجميع العباد ، أى أن كل الناس قادرون على البحث عن الحقائق بعقولهم · وفى الباب الثالث يدلل على أن النظر واجب وتكليف وأن الايمان بالله والرسول لا يصح الا عن طريق الاقتناع العقلى لا التقليد ·

يبدأ المؤلف بتعريف نظر القلب ، فيقول انه الفكر ، أى تأمل حال الشىء والتمثيل بينه وبين غيره وتأمل الادلة على اختلافها · (ص٤) وهو كذلك الاستدلال · (ص ٢٥) والفكر العقلى **ـ شأنه شأن أى اعتقاد ـ لا بد أن يتعلق بشىء ما ، بمعنى أنه لا يوجد فكر فى لا شىء ، أو فكر « فى ذاته » · واذا صدر الفكر من عاقل وفى دليل معلوم وعلى الوجه الذى يدل ـ أى بالطريقة المنطقية الصحيحة ـ فانه يؤدى بالضرورة الى المعرفة اليقينية · (ص ١١)** ولا يصح الفكر أو الاستدلال الا مع ابتداء الشك فى النتيجة · ولو ابتدأ المفكر بمعرفة المدلول لما صح منه النظر · ذلك أن « العالم والجاهل يتساويان فى أنهما لا يجوزان خلاف ما اعتقداه) (ص ١٢) وعدم الاعتراف بجوار النقيض فى موضوع ما يقتضى عدم البحث فيه ·

لكن ما هو العلم ؟

« هو المعنى الذى يقتضى سكون نفس العالم الى ما تناوله · » أى اليقين الذى لا يهزه شك · ومثل هذا اليقين يجب ألا يقع بالنسبة لأى موضوع استدلالى الا فى نهاية التفكير فيه وليس ابتداء ·

والعلم غير الخبر ، لأن « الخبر لا يصح أن يكون الا صدقا أو كذبا ، ويقتصر على تعلقه بالمخبر » أى موضوع الخبر ، بينما يوجد « فى العلم ، أمر زائد يرجع الى حال العالم سوى تعلقه بالمعتقد فقط أى أن اليقين يعبر عن حالة عقلية محددة تضاف الى صفة الصدق · (ص ٢٦) ·

لكن كيف نكتشف موضوعيا هذه الحالة التى يشعر بها العالم داخل ذاته ؟

نكتشفها بواسطة التعبير السلوكى الخارجى ، أى تصرفات الانسان · « فاذا رأى النار يتوقاها ، واذا رأى الماء يتوقى المشى عليه ، واذا رأى السبع يتحرز من الوقوف عنده ، ويجرى ذلك منه على طريقة واحدة » ـ هذا السلوك المضطرد السليم هو الذى يعبر عن أفكار صاحبه صحيحة (ص٣٦) وهكذا يسقط الاعتقاد القائل ان الجاهل قد تسكن نفسه الى ما يعتقده كما تسكن نفس العالم ، لأن مواقفه الخارجية لا تلبث أن تكشف هذا الوهم · وفضلا عن ذلك ، فمثل هذا السكون الظاهرى يتبدد بمجرد الفحص والتفكير البسيط ·

وفى الدفاع عن الفكر العقلى ، يرد القاضى عبد الجبار على « أصحاب التجاهل » وهم الذين ينكرون الحقائق مثل السفسطائية · كما يرد على أصحاب التقليد ، وهم أنصار السنة الذين يؤمنون بأن المعرفة امتثال لآيات الكتاب وأخبار السلف دون قياس أو استدلال · يعبر عن موقفهم دون قياس أو استدلال · يعبر عن موقفهم هذا الشعار المعروف « السؤال بدعة » · وفى مقابل هذا الشعار يقول المؤلف : « جميع النظر وجميع السؤال ، حسن لا قبح فيه · » (ص ١٠٥) · كذلك يرد على أنصار « الالهام » وهم الذين يزعمون أن المعرفة هى من فعل الله تعالى فى نفس العبد ، لا من اجتهاد والعقل · وأخيرا يرد على أفكار بعض زملائه من المعتزلة المتقدمين ـ مثل الجاحظ ـ ممن ينكرون منهج المحاولة والخطأ فى الفكر ، أى الاستدلال الارادى البطىء ،ويرون أن المعرفة نتاج حتمى تلقائى لوظيفة عضو الفكر ، أو على حد تعبيرهم « المعرفة واقعة بطبع المحل » (ص ٣١٦ ـ ٣٢٣) وهؤلاء أقرب الى من يسمون اليوم « الماديون الآليون » الذين يجعلون الفكر افرازا فسيولوجيا للمخ · ويطلق عليهم القاضى عبد الجبار اسم « أصحاب الطبائع » أو « أصحاب الضرورة » ، يقصد الحتمية الميكانيكية ·

أما بالنسبة لأصحاب التجاهل كالسفسطائية الذين يزعمون ان المشاهدات، أى المدركات الحسية هى ظن وحسبان ، فيكفى أن ينزل بأحدهم مكروه،

ليست ازاءه سلوك المؤمن بالعلم • فالرد على السفسطائي هو اذن « أن تبين أن تصرفه فيما أدركه • •يطابق المعرفة بحال ما تصرف فيه • » (ص ٤٣) •

صحيح أن الادراك الحسي يمكن أن يؤدي الى الخطأ مثل توهم السراب ماء • لكن الخطأ يأتي في عملية الاعتقاد لا في عملية الادراك « الادراك في الحقيقة لا يخطيء ، وانما يخطيء المدرك في الاعتقاد • » (ص ٤٥)

ومن أصحاب التجاهل فرقة تجعل الحقائق وفقا على اعتقاد كل فرد • لكن الحقائق موضوعية مستقلة عن ادراك الذات وارادتها • ولو لم يكن الأمر كذلك ، « فيجب اذا أعتقد المعتقد في الشيء سوادا أن يحصل بهذه الصفة • » والاختلافات في الادراك بين الأفراد تنتج عن اختلاف في المصالح والظروف لا عن اختلاف الحقيقة • ولو أدرك الناس الشيء « على حد واحد » لم يختلفوا فيه •

لكن هل معنى الدفاع عن الادراك الحسي ، أن صحة الادراك الحسي ، طالما أن أساس الاثنين العقل هو سبب الاختلاف والخطأ ؟

لا • بل ان من ينكر صحة العقل ، ينكر بذلك واحد ، وهو اليقين أو سكون النفس ، فالعلم بالمدركات والعلم العقلي ، لا ينفي أحدهما الآخر ، بل يترابطان • فالحواس أصل علوم العقل لكن العقل هو الذي يختص بالحكم عليها وتحديد صحتها ، من حيث أنه المختص بالصواب والخطأ • ولو لم يكن الأمر كذلك ، لكانت البهائم أكثر ادراكا من العقلاء •

والادراك الحسي هو أصل العلم الضروري أي البديهي ، لكن العلم الضروري يسبقه ، بمعنى أنه يضيف اليه أوصافا زائدة (هي المعاني العامة) ويصوغ منه التركيبات والتعميمات التي لولاها لبقي في مستوى الاحساس المباشر «المفصل» أي الجزئي المفتت • يقول :

« وذلك يبين أن هذا العلم غير تابع للادراك، رغم أنه لا بد من تقدمه على وجه مخصوص •• لا لأنه يوجد ابتداء قبل العلم بالمدركات ، لكن لأن العلوم المتقدمة لا تكون طريقا له • » (ص٦٦)

وهذا الفهم العميق لطبيعة العلاقة بين العقل والحواس ، هو أرقى ما وصلت اليه نظرية المعرفة قبل العصر الحديث •

ويرد على أصحاب الالهام في نوع من التخرج لكنه يركز على اعتراض أساسي ، هو أنه لو كان الله فاعل المعرفة في النفس ، لوجب أن تكون كلها معرفة أو يصل اليها دفعة واحدة عند انتباهه من نومه مثلا (٢٥٦ ـ ٢٥٧) • انما العلم من فعل العبد ، كما أن الجهل من فعله أيضا • والا لجاز أن يقال ان الجهل أيضا من فعل الله • (ص٣٤٣) •

والفكر العقلي يؤدي بالضرورة الى الحقيقة • ولا يمكن على وجه الاطلاق أن ينتج عن الفكر جهل أو ظن • (ص ٦٩) بل ولا يمكن أن ينتج عنه خلاف • ذلك أن « النظر من جميع الناظرين في دليل الشيء الواحد يقع على وجه واحد ويولد علما واحدا • » (ص ١٠٤)• و « لو بذل المخالفون الجهد فيما لديهم من النظر ، لعلموا الحق كما علمناه ، لأن النظر في توليده للعلم لا يختلف• لكنهم اجتهدوا في طريق الخطأ » •

وهنا يبرز سؤال يناقشه قاضي القضاة :

لماذا يقع الخطأ ؟

يشير المؤلف الى عدة أسباب تدل على عمق ـ رغم ما يؤخذ عليه من مبالغة في فكرة أن الحق واحد وأن الاختلاف في اليقينيات خطأ • من هذه الأسباب :

١ ـ التقليد أو الاقتداء الأعمى •
٢ ـ ابتغاء الرياسة أو المنفعة أو دفع الضرر، أي بتعبير عصري ، الانتهازية •
٣ ـ التمثيل بالمشاهدات دون تفكير وتحليل•
٤ ـ التفكير في مقدمات غير المقدمات المناسبة •
٥ ـ عدم استكمال التفكير •

ويخصص المؤلف بعد ذلك حوالي مائة صفحة لاثبات فساد التقليد • ونقطة البدء عنده أنه لا يوجد أي معيار يستعين به المقلد للمفاضلة بين تقليد فكرة ما وتقليد نقيضها • ولو كان التقليد حقا ، فلماذا أرسل الله الرسل مدعمين بالبراهين والأدلة ؟ انه لا يجوز حتى تقليد الرسل• «فالرسل

لا يقبل قولها الا باقامة البراهين • » (ص١٢٦) بل ان اعتقاد الحق عن تقليد يحرم صاحبه من أى امتياز ، لأنه لا يكون فرق بينه وبين من اعتقد البـاطل عن تقليـد ، الا نتيجـة البخت والمصادفة • (ص ١٩٩)

وهنا يناقش المؤلف أخطر اعتراض لخصـوم حرية الفكر العقلى ، وهو عجز **العوام عن التفكير وضرورة دفعهم الى الايمان بالتقليـد الأعمى •** والحقيقة ان المعتزله فى هـذه النقطة بالذات وصلوا الى درجة من الرقى والتقدم لم يصـل اليها كثيرون من المشتغلين بالفلسفة حتى اليوم فقد جرى فى الفلسفة مجرى البديهيات هـذا المبدأ الذى وضعه أرسطو منذ ألفين ومائتى عام عن انقسام النـاس الى خاصة يقرأون الفلسـفة وعامة عاجزين عن فك حروفها •

ويخصص المؤلف عدة فصول للتمييز بين البليد والذكى فى ميدان الفكر ، فيقول انهما بمثـابة المبتدىء والمتبحر فى أى مهنة من المهن ، كالصناعة والتجارة والسفر • فهذه المهن كلها تحتاج الى خبرة ومران وتكرار واستخدام الأدوات • كذلك الفكر يحتاج الى خبرة فى استخدام أدواته وهى العبارات وترتيب المعانى • (ص ١٣٧ — ١٣٩) والبليد فى التدريب عى الفكر يحتـاج الى مهلة أكثر من غيره ، تماما كما يحتاج الى مهلة للتدريب على اصابة الهدف • ولا يمكن أن يقال أن الفكر يحتاج الى سابق علم وحجج ، لأن العلم والحجج تأتى بالعكس نتيجة فكر سابق • (ص ١٤٧ — ١٤٨) فالعلم ينتج عن تفكير ، ولا ينتج عن علم •

وهو يعترف بان الذكى والبليـد ، أو المفكر والعامى ، يتفاوتان فى المسائل الفرعية الدقيقة • أما فى الأصول ، أى المبادىء العامة ، فالجميـع سواء من حيث القـدرة على مواجهتها فـكريا • ولهذا فالعوام مكلفون بالنظر فيها شانهم شان غيرهم (ص ٥٣٠) • ويشير الى خرافة التمييز بين الخاصة والعامة فى الفكر اشارة عميقة ، فيرى أن العامى **يستطيع أن يصل فى القياس والتفكير فى شئون الحياة العادية الى درجة لا يصـل اليها المفكر ، مما يبين أن القدرة على الاستدلال متوفرة لديه ، وانما انصرف عن استخدامها فى المعانى النظرية طلبا للنفع العاجل • يقول :**

« فأنت تتبين من حالهم اذا جاريتهم فى الأمور المتعلقة بالدنيا ، فان أحدهم يدقق النظر فيهـا ويتغلغل الى ما لا يصح أن يقف عليه الذكى من أهل العلم المبرز منهم • وذلك يدل على أن الأدلة حاصلة • وانما ذهبوا عن الطريقة فى هـذا الباب اسـترواحا الى طلب الراحة والكف عن النظر المتعب •• » (ص ٥٣١) •

ويتحمس القاضى عبد الجبار فى الدفاع عن العقل ، حتى ينسب اليه العصمة فيقول :

« العقل لا يجوز أن يدخل فيه الخطأ •• لأن سبب الخطأ غير العقل » •

فالعقل من شأنه أن يسير « على طريقة واحدة » فضلا عن أن « الحق ظاهر » (ص ٢٠٦) ، فيلزم من ذلك أن الخطأ يرجع الى الاسباب الدخيلة التى سبق ذكرها •

ومعظـم نظريات القـاضى عبد الجبـار قائمـة على نظريات أستاذيه أبى على الجبائى وابنـه أبى هاشم الجبائى • والجبـائى الأب (+ ٣٣٠ هجرية) هو صاحب نظرية الشك قبل التفكير • ذلك لأنه قبل أن يقع العلم لا بد أن يكون الانسان إما شاكا أو جاهلا • والجهل قبيح ، فلا يبقى سوى الشك • (ص ١٨٩) ثم انه اذا لم يشك الانسان ابتداء ، فمعنى ذلك أن نفسـه تكون ساكنة الى معتقده ، فلا يجد دافعـا الى الفكر والبحث • والشىء الذى لا دليل عليه ، يجب الشك فيه (ص ٥٠٠) والخلاصة أنه « اذا لم تلزم المعرفة ، فالشك واجب • » أما بعد وضـوح المعرفة ، فالشك انكار قبيح •

ويجب ألا يبدأ الانسان بالاعتقادات ، لأنـه لا يأمن فيها أن تكون من باب الجهل • ومن أقدم **على الخطأ عن جهل ، أكبر ذنبا ممن أقدم على الخطأ عن علم ، لأن الجاهل يكون مرتكبا لمعصـيتين : احداهما هذا الخطأ والثانية الجهل بقبحه**(ص٣١٤)

ولا يخلو الكتاب من تأملات نفسية بارعـة فى عملية التفكير ، يناقش فيها المؤلف الفرق بين « الخاطر » و « حديث النفس » و « الوسوسة »

ويرد على الفكرة التى يمكن تسميتها بالتعبير الحديث فكرة سلوكية ، والتى قال بها أستاذه أبو على ، وخلاصتها أن الكلام من أى نوع لا بد أن يعتمد على حركات عضوية من الفم واللسان (ص ٤١٢) ٠

ولعل هذه الأمثلة من المناقشات التى ساقها القاضى عبد الجبار ، تكفى لتبين مدى تقدم الفكر الفلسفى عند المعتزلة ، ومدى حاجتنا اليوم الى الاهتمام بدراسة هذا الفكر خلال عملية احياء تراثنا العقلى ٠ ولقد كان نشر كتاب « المغنى » عملا كبيرا فى حد ذاته ٠ لكن يجب أن نستكمل تلك التى تنفد طبعتها الأولى ـ وتزويدها بالشروح هذا العمل باعادة تحقيق بعض أجزائه خصوصا والتعليق ٠

ومن المؤسف أن المقدمة الصغيرة جدا فى هذا الجزء بالنظر والمعارف ، لم تكن موفقة ٠ ورغم أنها تضم سبع صفحات فقط ، فقد تورط كاتبها فى اشارات تناقض تماما أفكار مؤلف الكتاب ٠ وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يقول صاحب المقدمة معبرا عن رأى القاضى عبد الجبار :

« لا يجب النظر على الصبى ولا على البليد والغبى ، لأنهم لم يهيئوا له » (ص : هـ) ٠

والغريب أن محور أفكار الكتاب هو مجادلة اثبات أن البليد والغبى يختلفان عن الطفل وأنهما مهيئان للنظر وقادران عليه ومكلفان بفعله !

أما عن التحقيق ، فيمكن أن نشير الى أمثلة محدودة ينقلب فيها المعنى ، أو تزيد من تعقيد الكتاب :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥	٢٠	على ما يقويه	على ما هو به
٣٦	١٥	ينصرف	يتصرف
٣٧	١	يجد أن	يجدان
٥٢	٩	الذم	الدم
٥٣	٣	حصول شبهة ، وليس	حصول شبهة ولبس ٠
٥٤	٩	الا	لا
٥٦	١٤	لم	ثم
٦٤	٣	مما	فيما
٦٥	٦	يغتفر	يفتقر
٧٩	٥	وجهودها	وجودها
١٢٠	٩	يبطلون	يطلبون
١٢٥	١٦	عندما	عندنا
١٢٥	٢١	الظن	للظن
١٤١	٢	على واحد واحد	على حد واحد
١٥٦	١٨	يدرك	لا يدرك
١٦٨	١٢	أزال	أراد
١٩٩	١٣	العباد	العناد
٢١١	٩	حسن ضده	جنس ضده
٣٤٥	١٨	الحس	الجنس
٥٢٢	١١	البعد	العبد

يضاف الى مثل هذه الكلمات ، طريقة غريبة فى وضع الفواصل والنقاط تجعل بعض صفحات الكتاب غير مقروءة ٠

ومع ذلك ، فالقارىء لا يملك الا أن يعتذر للمحقق بضخامة الكتاب وجفاف لغة المؤلف وتعقيدها ، والحاح الحاجة الى سرعة نشره ، وانما نرجو أن تحظى الأعمال القادمة بالمزيد من الاهتمام ٠

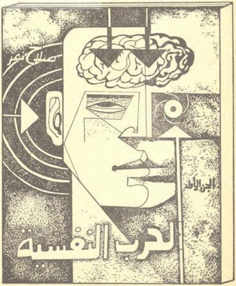
اسماعيل المهدوى

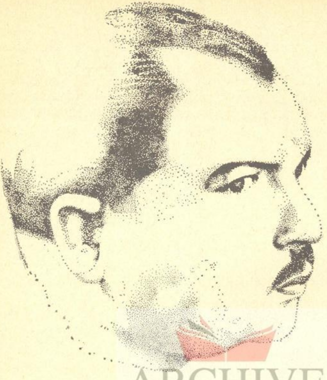
الحرب النفسية

عرض ونقد

فؤاد شاكر

ان الحرب النفسيه كثيرا ماتستخدم لوصف أى صراع أيديولوجى بين الدول : فمنها الحرب الباردة ، والحرب الدائمة ، والنضال الممتد ـ على حد قول ماوتسى تونج ـ ٠٠٠ الخ ٠ وقد نرى هنا أن نستخدم تعبير الحرب النفسية أيضا لوصف عمليات تغيير الشخصية بوسائل فسيولوجية ميتافيزيقية ، ومن ذلك مايسمى بغسيل المخ ، أو اعادة البناء الذهنى ، أو التكتيك السيكولوجى . كما نرى أن تطبيق تعبير الحرب النفسية يمكن أن يطلق على الأساليب والوسائل التى استخدمت ضد عقل الانسان فى تاريخه الطويل على الارض ٠٠ وفى الحقيقة نجد أن هناك أربعة أشكال من النضال الدولى نستطيع أن نحصرها هى : الحرب النفسية ، والحرب السياسية ، والحرب الاقتصادية ، والحرب الفعلية (العمليات الحربية)، ويمكننا ان نضيف هنا أن مفهوم هذه الاصطلاحات يختلف من دولة لأخرى ٠





تأليف
صلاح نصر

الناشر : دار القاهرة للطباعة والنشر ٦٣٧ صفحة ١٠٠ ص

حول هذا الموضـوع الحيوى الخطير ، يدور موضوع الكتاب القيم الذى قدمه للمكتبة العربية « صلاح نصر » بعد أن قدم لها من قبل « الحرب الاقتصادية فى المجتمع الانسانى » (١) • وحسبنا أن هذه المؤلفات الموضوعية الجادة كبيرة النفع جليلة الأثر •

ان الحرب النفسية ليست أفضل أو أسوأ من غيرها من أشكال الصراعات الدولية ، والاختلاف كله ان الانسان لا يصاب منها بضرر جسمانى نسبى اذا ماقورنت بحرب الأسلحة الأخرى • ومن ناحية تكاليفها نجد أنه لا يمكن مقارنة آثارها البالغة على العدو بالنسبة الى نفقاتها • والحرب العسكرية ، والحرب الاقتصادية ، والحرب النفسية تشكل معا نوعا من الحرب هو « الحرب الشاملة » •

هل يمكن تعريف الحرب النفسية بالتحديد ؟ من العسير ذلك • فعند تعريفها لابد من مواجهة مجموعة كبيرة من المصطلحات التى شاعت خلال الحديث عن الصراع الأيديولوجى الذى يسود العالم اليوم ، هذا قليل منها : الحرب الباردة – حرب الأفكار – النضال من أجل الحصول على عقول الرجال وارادتهم – الحرب من أجل السيطرة على عقول الرجال – حرب الفكر – الحرب الأيديولوجية أو العقائدية – حرب

(١) راجع العدد الحادي والعشرين من مجلة الكتاب العربي – فبراير ١٩٦٦ •

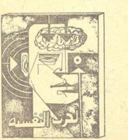
الاعصاب ـ الحرب السياسية ـ الاستعلامات الدولية ـ استعلامات ماوراء البحار ـ حملة الحقيقة ـ الدعاية ـ الدعاية الدولية ـ حرب الدعاية ـ الكلمات ـ العدوان غير المباشر ـ الاثارة ـ الاعلام الدولى .. « ونتيجة للمعانى الكثيرة المتنوعة التى أعطيت للحرب النفسية ، ونتيجة للتغير الذى يحدث لها بصفة مستمرة ، فاننا لم نحاول أن نعطى تعريفا معينا لمفهوم الحرب النفسية ، ولكننا آثرنا أن نوضح المجال الذى يمكن أن تعمل فيه .. » .

فى العمليات الحربية والمعارك ، يكون الهدف هو قتل الجنود وتدمير ممتلكات العدو ، وتتضح آثار هذا العمل العسكرى أمام الأعين • الا أن الهزيمة الحقيقية تكمن فى عملية غزو العقل • ونجاح العمليات العسكرية يتوقف تماما على عوامل سيكلوجية ، ويتحقق النصر النهائى باستسلام جنود العدو ، ويخضع المواطنون فى النهاية لرغبات العدو الذى يقوم بالغزو • ان كلا من الجندى والمدنى هدف للحرب النفسية ، كما أن العمل السيكلوجى هو الذى يمكن فى النهاية من حرمان العدو من ارادته فى المقاومة ، وهو الذى يفسد الجندى كفرد ، ويجعله آلة قتال غير صالحة ، لأنه ينتزع منه الشىء الوحيد الذى يجعله يقاتل بروح ، وهو الأمل فى النجاح • واذا نظرنا الى الأمر نظرة فاحصة ، نجد أن كل الحروب ـ عسكرية كانت أو اقتصادية أو سياسية ـ انما هى حرب نفسية ، لأنها تهدف الى تغيير العقل وتقبل رغبات العدو •

ماهى الأهداف التنفيذية التى تستخدم من أجلها الحرب النفسية ؟

يمكن تلخيصها فى موضوعات ثلاثة :

١ ـ أهداف يمكن اعتبارها سياسية بحتة



(سواء اكانت بعيدة المدى ام قصيرة الاجل ام متوسطة) •

٢ ـ أهداف يتعذر تحديد ما اذا كانت سياسية أو عسكرية •

٣ ـ أهداف عسكرية بحتة •

● الانسان والسلوك الاجتماعى

لما كان هدف الحرب النفسية هو عقل الانسان ونفسيته وليس جسده ، ولما كان الناس يختلفون فى الطباع والسلوك والمعتقدات ، ولما كان الانسان مخلوقا معقدا تتحكم فى سلوكه عوامل عديدة ، كان لابد من دراسة السلوك الاجتماعى ، والعوامل التى تحدد سلوك الانسان بصفته عضوا فى الجماعة التى يعيش فيها ، والتى تعتبر هدفا للحرب النفسية : كالدوافع المباشرة للسلوك ، والادراك ، والعلم ، والدين ؛ والثقافة ، والتعليم •

واذا كان التاريخ مجال من مجالات الدراسة الانسانية ، فاننا نجد فيه أحداثا لا حصر لها ، تعتبر تطبيقا لما نسميه اليوم بالحرب النفسية • ومنها مايروى عن تحتمس الثالث عندما هم بفتح يافا فى فلسطين ، واستعصى عليه أمر فتحها ، فلجأ الى الحيلة والخديعة والمفاجأة حتى استمال اليه حاكم المدينة الذى ذهب لمقابلته خارج أسوارها ، فلما اختلى به تحتمس هجم عليه وصرعه ، ثم فعل كما فعل اليونان بحصان طرواده الشهير ، اذ أخفى مائتين من أمهر رجال الجيش المصرى فى غرائر ، وبعث بهم مع سائس خيل الحاكم برسالة الى زوجته ومعهم جماعة من الجنود يحرسون الركب • فلما اجتازوا أسوار المدينة ، انطلقوا جميعا يهاجمون ويقتلون ويثيرون الرعب حتى أمكن للقائد المصرى أن يحرز النصر ويستولى على المدينة •

وان وقفة القائد العظيم « طارق بن زياد » وخطبته المشهورة على مشارف جبال الأندلس والتى غيرت مجرى تاريخ أوربا والعالم ، مثل بارز فى التاريخ الاسلامى : لما وجد أنه يواجه جيشا يبلغ نحو عشرة أضعاف جيشه ، أمر جنوده باحراق سفن الأسطول العربى ، ووقف يخطب « أيها الجنود ، العدو أمامكم ، والبحر وراءكم ، وليس لكم والله الا الموت أو النصر ، ولا يعينكم على هذا الا ماتستخلصون من أيدى عدوكم » • فثبت الجنود وقاتلوا حتى النصر • وكانت هذه الحرب النفسية حربا ايجابية أدت الى النصر

كمثال على قوة الارادة وما يمكن للتأثير المعنوى أن يؤديه فى كسب معركة حاسمة .

ولقد حاول نابليون بالخديعة والدهاء استمالة المصريين اليه ، ولكنه فشل ، وانتهكت خيوله وجنوده حرمات المساجد ، وعامل المصريين بالقسوة والعنف . وقد بدأت الحرب النفسية على المصريين منذ أول منشور صدر عن الجيش الفرنسى ومما جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه .. يا أيها المصريون ... قد قيل لكم اننى مانزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح .. وقولوا للمفترين : اننى ماقدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، واننى — أكثر من المماليك — أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم .. ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشىء الذى يميز بعضهم عن بعض هو العقل ، والفضائل ، والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل تضارب .. فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يمتلكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء حسن فيها : من الجوارى الحسان ، والخيل العتاق ، والمساكن المفرحة .. ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون . واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى ، وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ... » .

ومن شواهد التاريخ ، نجد أن الوسائل الفعالة التى استعملت فى مضمار الحرب النفسية قديما هى :

١ — الخداع عن طريق الحيل والايهام .

٢ — اثارة القلق باستخدام وسائل غير مألوفة .

٣ — الشتائم .

٤ — افتراءات العدو ودحض قضيته التى يحارب من أجلها .

٥ — خلق قوة خاصة جبارة لا تقهر .

٦ — التهديد بواسطة التسليح .

٧ — بث الذعر واطلاق الشائعات .

٨ — التحقير من قوة العدو .

٩ — الاغراء والتضليل والوعد .

١٠ — استغلال الخلافات الدينية والعقائدية .

١١ — الارهاب والتخريب .

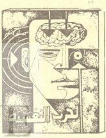
والنتيجة فى جميع هذه الأحوال تنصب فى النهاية على أن « كل طرف من أطراف النزاع قبل المعركة المسلحة وفى أثنائها يسعى دائما الى اضعاف موقف الطرف الآخر عن طريق شن هجوم عنيف الى القوى الروحية والنفسية لديه ، وفى الوقت نفسه يسعى الى تقوية موقفه هو » .

ثم كانت الحرب العالمية الأولى ، وفيها تحولت الحرب النفسية من وسيلة عرضية الى آلة عسكرية رئيسية « فقد لعبت سياسة الحلفاء الملطفة ، ونقاط ويلسون الأربع عشرة ، وطابع الاهمال الذى اتصف به القيصر غليوم ، ثم انبعاث القوميات البولندية والفنلندية والتشيكية والسلافية ، لعبت دورا حقيقيا فى استسلام ألمانيا ١٩١٨ » .

ولقد استفادت ألمانيا الهتلرية بعد ذلك من موقف القيصر غليوم الذى كان متعاليا لا يثق فى مقدرة الشعب أو انزاله منزلته الصحيحة . اذ وصلت النازية الى السلطة عن طريق استمالة الرجل العادى ، وطبق هتلر هذا التكنيك فى الميدان الدولى بادئا بتملق الجماهير فى كل مكان ، وقام بالعروض التى تدل على القوة ، ثم انتهى الى الوحشية الباردة التى لا يهمها كل مايحدث فى سبيل تحقيق هدفها .

كان لأمريكا فى الحرب العالمية الأولى هيئتان للدعاية : الوكالة المدنية للمعلومات ، ثم الوكالة العسكرية ، ولها قسم للدعاية أو الحرب النفسية فى هيئة العمليات . ثم جاءت الثورة البلشفية فى السنة الرابعة للحرب ، واستندت هذه الثورة الى الدعاية التى استمرت السلاح الرئيسى للبلاشفة ثم عند التحول الى الشيوعية ، مستخدمة فى ذلك وسائل عدة : كتنظيمات الحزب ، واتحادات العمال ، والمنظمات السرية ، والبعثات التجارية والقنصلية ؛ والنشرات البريدية

والملصـقات ، والكتب والصــحف ، والأفلام والاذاعة • والواقع أن ماحققته الشـيوعية فى ميدان الحــرب النفسية كان يعتبر دائما جزءا خاصا من تطبيقات الماركسية • واتخذت النازية من المثال الشيوعى نموذجا فى التطبيق : فقد أوضح الشيوعيون ان أقلية لها رسالة مقدسة من اختراعها ، يمكن أن تحصل على تعضـيد الجماهير لحكومة تزعم أنها تهدف للعمل من أجل الشـعب ، وان كانت لم تتـم بواسـطة الشعب ولا من بين صفوفه . وبينما كانت الغاية بالنسبة للشيوعية «قيام الشيوعية الدولية» ، كانت الغاية بالنسبة للنازية « حكم العالم » . ونمت الدعـاية فى كلتـا الدولتين لتكون « ايديولوجية » .



فى خـلال الحـرب العـالمية الثانية نشطت أسـاليب الحـرب النفسية ، فاستطاعت دول المحور ــ رومـا ، برلين ، طوكيو ــ أن تجعل شعوبها أولا راضية عن القيام بحرب عدوانية ، ثم قامت بتفتيت خصومها للحصول على النصر جزءا بعد آخر ، وكان عليها أن تخيف أعداءها المباشرين ، وأن تهـدىء خصومها المنتظرين • واستخدمت الدعاية « السوداء » ــ كالاذاعات السرية ــ استخداما واسع النطاق برغم مابذل من جهـد لاخفائها • كما لوحظ أن بريطانيا وألمانيـا وجدتا فى الاذاعة وسيلة فعـالة يمكن توجيهها الى كل أوربا على الموجات العادية ، بل تستطيع كل منهما أن تتداخل فى الاذاعة الأخرى بالقيام بما يسمى « أعمال الشوشرة » • ولقـد حقق الألمان فى ميدان الدعاية ثلاثة انتصارات :

١ ــ فى المجال الاستراتيجى ، بأن تبدو كل ضحية على أنها الضحية الأخيرة •

٢ ــ فى المجال السياسى بجعل كتلة كبيرة من الرأى العـام الدولى ترى أن مستقبل العالم يتوقف على الاختيار بين الشيوعية والفاشية •

٣ ــ استخدام « الذعـر الكامل » بجعـل الشعب الألمانى نفسه يخشى من تصفية الشيوعية له ، كما استخدمت أفلام عمليات الحرب الخاطفة لاخافة الجماعات الحاكمة فى دول أخرى ولتحطيم المعنويات ، وتسبب عن ذلك مايسمى « بالانهيار العصبى للأمم » وذلك بابقائها دائما فى حالة شك وعدم تيقن مما يمكن أن يحدث لها غدا •

واختير « جوبلز » وزيرا للدعـاية ، وتبدو أهمية منصـبه من أنه كان الرجل الثالث فى النازى وكان مسئولا أمام هتلر فقط ، حتى قيل ان الحكومة تبدو كما لو كانت تعمل كقسم متفرع من وزارة الدعاية •

أما الأمريكيون فقـد كونوا ادارة للمعلومات امتلأت بالأخصائيين ، ولاسيما فى القسـمين الخاصين بالبحوث والتحليلات ، وتتولى السيطرة المباشرة وغير المبـاشرة على كل الدعاية المحلية والخارجية فى نصف الكرة الغـربى ، وحـددت أغراضها : باسـتمرار جمع المعلومات ــ القيام بالدعاية السـوداء ــ القيـام بأعمال المؤامرات والتقويض بالتعاون مع السلطات العسكرية •

فى منطقة الميـدان الأوربى أسـندت مهمة تخطيط واستخدام الحـرب النفسية والتنفيذ الفعلى للعمليات الى قسم الحرب النفسية التابع للقيـادة العليـا لقـوات الحلفاء • ومهمته الأساسية :

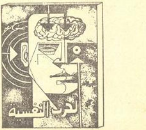
- شن الحرب النفسية ضد العدو •
- استخدام كل الأجهـزة الممكنة الخاصة بالحرب النفسية وحفظ الروح المعنـوية للدول الصديقة التى كان يحتلها العدو ، واقناع شعوب البلاد بالانصياع لرغبات القائد الأعلى (الجنرال ايزنهاور) •
- القيام بعمل دعـاية متضامنة فى البـلاد الصديقة المتحررة •
- السيطرة على خدمات المعلومات فى الجزء الذى يحتله الحلفاء فى ألمانيا •

فاذا اتجهنا ناحية الشرق الأوربى ، وجدنا أن لتخطيط السوفيتى يقــرر بأن الكلمات ليست كافية ، وأنها يجب أن تندمج فى الأفعال ، وأن تنغمر هى والأفعال معا فى « التنظيم » • والحقيقة الواضحة على مايقول « هارولد لاسويل » : ان الشيوعيين لا يخوضون المعركة اطلاقا من أجل السيطرة على عقول الرجال عامة اللهم الا فيما هو ضرورى لكسب عدد معين من عقول الرجال بقصد اكتســاب المصــادر المادية لقــوة يظن أن عقول الجماهير تتأثر بها وتعمل بوحيها •• أى بمعنى أن المعركة تهدف الى اكتســاب عقول الزعمـــاء والقادة •

أفلح الروس فى تطوير أنفسهم فى معــركة الحرب النفسية ، اذ نجحوا فى تجميع مواطنيهم وتكتيلهم ضد العدو ، وطالبوا الشــــعب بأداء الصلوات فى الكنائس من أجل النصر ، وأطلقوا على الحــرب اسم « الحـــرب الوطنية الكبرى » ، وأثاروا طبقة « اليونكرز » ضـــد النازيين غير المحترفين الذين يحطمون الجيش الألمــــانى ، واستخدموا الأسرى الألمان فى الدعاية ، وجعلوا الجنرالات النـــازيين يتحولون الى حركة ألمانيا الحرة •

واذا كان الســوفيت قد اكتشـــفوا أى شىء جديد ، فليس هو « قوة الكلمة » بل قوة الحزب المنظم والمكرس للقتال • ولهذا ، فان الطريق الى تفهم الحرب النفسية عند السوفييت انما يجىء عن طريق تفهم هذا الحزب المقاتل « الذى يعمل كله » والذى يســتخدم الكلمات والأفعــال فى تجمعات وطوابع تبعا للحاجة فى السلم أو الحرب لمناصرة وتعضيد أهدافه • وتتحكم فى التنظيم السوفييتى للحــرب النفسية : معتقدات الحزب وأهـدافه ووجهـــات نظره على النطاق العالمى وتنظيمه وعقيدته التكتيكية • ويستعين الحزب « بالدعـــاية » و « الاثارة » • وتضـــم الادارة المركزية للدعاية والاثارة أقساما وفروعا تعمل وفق برنامج يطلق عليه « دومينــــاش » اسم « البرنامج الشامل » لأن حيـــاة المواطن تكون غرضا لهذا البرنامج ، وتصبح المدارس والصحف والاذاعة والعــلم والموســـيقى والفن والسينما والآداب ، معبرة عن رغبة الحزب وارادته • واذا كانت الدول الشيوعية توجــه ٩٠٪ من جهدها الخاص بالدعاية داخل الفلك السوفييتى ، فانها فى الخارج تستخدم نفس الأسلحة التنظيمية ، فالحزب المقـــاتل يعمل فى كل مكان ويستجيب لنفس السيطرة الصـــلبة الجامدة • ولا نكون مغالين اذا قلنا ان كل عضـــو من أعضاء الحزب الشيوعى الســـوفييتى ــ الذى يصـــل الى ستة ملايين عضو ــ يعتبر الى حد ما داعية مدرب.

ثم انتهت الحرب العالمية الثانية لتتمخض عن صراع مذهبى كبير بين المنتصرين ، ســـاد العالم بسببه جو من الاضطراب والقلق ، بدرجة فاقت ماكانت تتوقعه الشعوب من ويلات الحرب • ومنذ ذلك الحين ، دخلت الحرب النفسية مرحلة لا هى حرب حقيقية ، ولا هى ســـلام حقيقى • أطلق عليها المعلق السياسى «والترلبمان» تعبير «الحرب الباردة» بأشـــكالها المختلفة ، ونلمس الآن مظاهرها فى التسابق العنيف للتسلح النووى ، وفى الحروب المحلية العـــديدة ، وفى الصراع الفكرى والعقائدى بين الدول والكتل والشعوب المتحررة فى دول أفريقيا وآسيا ، وفى الاذاعات الســـوداء التى تســـهم بنصيب كبير فى هذا الصراع ، وفى الصحف ووكالات الأنباء ، وحتى فى اكتشافات الفضاء ••• ولاشك أن العالم يمر بمرحلة حرجة ، ولا منجاة للبشرية من أخطار التدمير الشامل الا اذا تضافرت الجهود المخلصة الداعية للسلام الحق ، وتحقق التعايش السلمى بين شعوب المجتمع الدولى ، وأدت الأمم المتحـــدة مسئوليتها التاريخية فى دعم الأمن والســـلام والعدالة فى كل ربوع الارض •



اذا كان للحرب النفسية هذا الدور الحيوى الخطير ، فما هى مؤهلات العاملين فى ميادينها ؟ وما هى المعايير التى نستطيع بواسطتها أن نميز غير الكفاءات والمهارات فى ميدان الدعاية ؟ أو ماهى العوامل المهيئة لفرص النجاح التى يمكن أن نلمسها عند اختيار من سيعملون فى ميدان الحرب النفسية ؟

يقول لوكهارت : « على كل عامل فى ميدان الدعاية أن تكون له صفات المثلة الأولى - البريمادونه - يجب أن يولد بعين واحدة .. كانت ادارتنا تضم حفنة من العسكريين المحترفين ومن الموظفين المدنيين أما البقية فكانوا من جهات شتى مثل الصحفيين ورجال الأعمال وخبراء الاعلان والمدرسين والمؤلفين ورجال الأدب والفلاحين والقضاة ورجال البورصة وعلماء النفس وعمداء الجامعات . وانى لا أعتقد أن مهنة معينة لها ميزة خاصة عند التدريب . فرجل الدعاية يولد ولا يصنع . ومما لاشك فيه أن الصحفيين كانوا أكثر الناس فهما لقيمة الكلمة الشفهية والكلمة المكتوبة .. وكان المدرسون ممتازين ، والعمداء يتمتعون بعقول ممتازة ولكنهم يميلون الى عدم تقبل النقد ... » .

وتتطلب الحرب النفسية المؤثرة - كما ذكر لاينبارجر - أن يجمع الفرد أربع مهارات :

١ - معرفة عملية بتنظيم الحكومة وسياستها حتى تستطيع تفسير أغراضها وخططها تفسيرا سليما .

٢ - معرفة جيدة بالاجراءات العسكرية والبحرية والعمليات الحربية مع فهم كاف لفنون الحرب حتى يكيف التصريحات الخاصة بالدعاية مع المواقف ومع عمليات الدعاية العملية .

٣ - معرفة مهنية بوسائل الاعلام أو على الأقل أحدها ، أو بمجال متصل بذلك اتصالا وثيقا .

٤ - فهم وثيق على المستوى المهنى لمنطقة معينة مبنية على معرفة شخصية ومعلومات عن اللغة والتقاليدوالتاريخ والسياسة العملية والعادات.

٥ - فهم لعلم النفس وعلم الأجناس وعلم الاجتماع والتاريخ والعلوم السياسية .

ويعلن لاينبارجر على ذلك قائلا : « ان الرجل الذى يتقدم ليقول ان تتوافر فيه كل هذه المؤهلات الخمسه اما أن يكون منافقا واما عبقريا رأما كليهما .. **وليس هناك محارب نفسى كامل ، ومع ذلك فكل فريق من فرق الحرب النفسية يمثل كل هذه المهارات مجتمعة »** .

ومن جهة أخرى يرفض «دانيال ليرنر» وجهة النظر التى تقول أن رجل الدعاية موهوب لا مصنوع ، بل يؤمن بالرأى القائل بامكان خلق المهارات فيه . ويؤكد « كروسمان » عاملين : القدرة على فرض النفس على تفكير المستمعين ، والقدرة على معرفة اللحظة المناسبة للكلام بقصد الحصول على أقصى تأثير » .

ومهما اختلفت الآراء فى رجل الدعاية والحرب النفسية ، فانها تلتقى على مؤهلات أساسية يجب أن تتوافر لديه ، وهى تعتبر كأنواع من المواهب والاهتمامات التى يمكن أن يحصل عليها بالخبرة والتعليم ، والتى يمكنه أن يحولها الى مهارات للاستعمال :

١ - المعرفة الوثيقة بالمستمعين : تاريخهم ، لغتهم ، أساطيرهم ، معاهدهم ، عاداتهم ، تركيبهم الاجتماعى ، سياستهم .

٢ - المعرفة التفصيلة بتطورات المستمعين : معتقداتهم ، ما يشكون منه ، هواياتهم ، تاريخ دعايتهم .

٣ - فكرة منظمة عن سياسة عملية الدعاية، وتتطلب ادراكا دائما بأن غرض الحرب النفسية هو استخدام آمال الهدف والمخاوف والرغبات والعبارات لتحقيق أغراض السياسة .

٤ - فكرة منظمة عن عمليات الثقافة النفسية الخاصة بتشكيل الآراء . وتتطلب ادراكا بأن الحرب النفسية تعمل داخل بيئة متسعة ، وأى عنصر من عناصر البيئة كفيل بأن يؤثر على بناء أى هدف .

٥ — « انف فى السياسة » وهى صفة صعبة التحديد ، المهم ان يشم او يحس العواقب السياسية لأى موضوع .

٦ — فصاحة التعبير ، اذ يجب أن تكون لديه القدرة على قوة التعبير ، ولكن تحت السيطرة .

وهناك مهارات أخرى معينة لازمة فى مهام معينة . فواضع الخطط يجب أن يعرف كيف يحول سياسة الأغراض السياسية التى يخدمها الى دعاية ، وكاتب النشرات يجب أن يعرف كيف يمكن تحويل سياسة الدعاية الى نصوص تقع تحت عين القراء ، والمذيع يجب أن يعرف نفس الشيء بالنسبة لتحويل سياسة الدعاية الى مادة تؤثر فى أسماع العدو ، ورجل المخابرات يجب أن يعرف كيف يراقب ويختار ويسجل كل البيانات التى يعتمد عليها كل أعضاء الدعاية .

على أن هذه الصفات الطبيعية والمهارات التى يجب أن تتوافر فى رجل الدعاية لا تكفى وحدها لنجاحه ، فبدون التدريب الذى يستهدف استمراره لعدة سنوات . لا يمكن للقائمين بعمليات الحرب النفسية من أن ينفذوها على اكمل وجه .

فوق ذلك ، هناك مؤهلات ومهارات لابد من توافرها فى العاملين بميدان الحرب النفسية حسب التقسيم الوظيفى ، مثل رجال المخابرات، الاداريون ، رجال الاتصال ، الرجال المبتكرون ، الباحثون الفنيون ، موظفو الخدمات ..

التخطيط والعمليات :

لابد لهذا العمل الضخم من تخطيط دقيق منظم فى المستويات المختلفة . ويستطيع من يقومون بالتخطيط فى جميع المستويات ، ان يحددوا الاحتياجات مقدما ، وأن يعينوا بالتفضيل المسئوليات والواجبات . والحرب النفسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بسير العمليات الحربية ، ويتوقف نجاحها او فشلها على المواقف السياسية والعسكرية المختلفة . ان نجاح الحرب النفسية او فشلها لا يظهر الا بعد مدى طويل ، وبصرف النظر عما تدعيه دعاية العدو وتزعم لنفسها أنها هى التى ادت الى نتيجة الحرب النفسية ، غير انه فى الحقيقة لا يمكن ادراك ذلك الا بنتائج العمليات الحربية التى تحقق النصر او الهزيمة. وتعطينا الحرب العالمية الثانية مثلا بارزا : فعلى الرغم من أن أثر القاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكى استولى على خيال العالم أجمع وجعله يعتقد أن اليابانيين لم يلجأوا الى التسليم الا نتيجة هذه القنبلة ، فان الحقيقة غير هذا . ان القنبلة الذرية كان لها أثر فى وضع حد للحرب بصورة مروعة ، كما كان لها أثر مخيف فى اذهان البشر ، الا ان الحرب النفسية التى شنت ضد اليابان قبل قذفها بالقنابل ، كان لها اثر فعال فى تهيئة اليابانيين ودفعهم الى اصدار قرار الاستسلام . فقد بدات محاولات الصلح قبل القاء هذه القنبلة بوقت طويل بفعل الحرب النفسية عن طريق عاملين : الاذاعات السرية ، والوسائل النفسية التى استخدمها الامريكيون للتمهيد لضرب هيروشيما .



مشكلات التخطيط :

تختلف الحرب النفسية اختلافا جوهريا عن الحرب الفعلية من ناحية الشكل والأهداف ، فهى ليست الا مجرد سلاح مساعد لتحقيق اهداف العمليات الحربية وقت الحرب ، وتحقيق اهداف سياسية وقت السلم ، علاوة على أن الذين يقومون باعدادها وتنفيذها منتشرون بين أجهزة وادارات عديدة غير مرتبطة بعضها البعض لا فى التنظيم ولا فى المسئوليات التى تقوم بها . ولذا تواجه الذين يقومون بوضع خطة عامة للحرب النفسية مشكلات رئيسية منها :

● الاستراتيجية الكبرى للدولة والى اى

مدى تتمشى الخطة النفسية لتحقيق أهداف الخطة الكبرى .

- قيود الأسلحة المختلفة التى ستتعاون فى تنفيذ الخطة (كقيود وسائل الاعلام وقيود اجراءات الأمن)
- العامل البشرى (قدراته وطاقاته والعوائق البشرية)
- الدعاية المضادة .
- التوجهات المكتوبة .



الشائعات أفعى المجتمع :

ان الشائعات ـ الى جانب الأسلحة الأخرى للحرب النفسية ـ سلاح رهيب يفتك بمعنويات الشعوب ، ويهدف غالبا الى شل فكر الانسان وجعله ينقاد كما ينقاد قطيع الغنم الذى يدفع نحو المستقبل المجهول ، أو ينطق نطق الببغاء الذى يردد ما لا يعقله ، ويحكى ما لا يفهمه .

يعرف « ألبورث » و « بوستمان » الشائعة بأنها « اصطلاح يطلق على راى موضوعى معين ، مطروح كى يؤمن به من يسمعه ، وهى تنتقل عادة من شخص الى آخر عن طريق الكلمة الشفهية ، دون أن يتطلب ذلك مستوى من البرهان أو الدليل » . على أنه كثيرا ما تنتقل الشائعة عن طريق الصحافة ، أو الاذاعة ، أو أجهزة الاعلام الأخرى . وهى تتسم بصفة التناقض ، فقد تبدأ على شكل حملات هامة ، أو تهب كريح عاصفة ، وقد تكون مسالمة ، لا تحمل اكثر من تمنيات طيبة للمستقبل ، أو مدمرة تحمل بين طياتها كل معانى الحقد والكراهية والتخريب . وهى تمس أحداثا مثل الحرب والكوارث وارتفاع الأسعار ، والعلاقات السياسية والموضوعات الاقتصادية ، وهناك أشكال أخرى ملموسة تظهر فيها ، مثل : الثرثرة والنكات والتقولات والقذف والتنبؤ ـ بخير أو بشر ـ بالاحداث المقبلة .

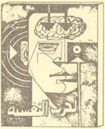
وهناك شرط أساسى لاكتمالها ، وهو أهمية الحدث أو التشخص ، مع ضرورة توافر الغموض الذى يكتنف الشائعة ، علاوة على الدوافع النفسية التى تبعث على خلقها وترويجها . وتروج عندما تكون للأحداث اهمية فى حياة الأفراد أو عندما لا ترد عنها أخبار قاطعة ، أو عندما تكون الأخبار غامضة .

وللشائعة غرض تقييمى ، فهى تصف بدقة راى من يقوم بترويجها ووجهة نظره ازاء من يتحدث عنهم . ولما كان الرجال يحبون القصص التى يعطونها ويرفضون الشك فيها ، فانهم ينسبون الشائعة الى « مصدر موثوق » أو أنها صادرة من « ضابط ذى مركز كبير » أو «شخص من القيادة العامة » . . الخ . وبصورة عامة ، هناك شرطان أساسيا يتصلان بالاشاعة وارسالها ، وهما : الأهمية والغموض . أى أهمية الموضوع بالنسبة للأفراد المعنيين ، وغموض الأدلة الخاصة بموضوع الشائعة . وقد توصل « البورث » و « بوستمان » الى وضع معادلة عن شدة الشائعة على هذا النحو :

شدة الشائعة = الأهمية × الغموض .

والشائعات ظاهرة اجتماعية ، فهى تصاحب المجتمعات منذ بدء الخليقة . وفى شواهد التاريخ ما يدل على أنها عاشت وتبلورت وترعرعت فى احضان كل حضارة وثقافة ، ومن يجهل الشائعات التى روجها المنافقون والمغرضون واليهود والكفار حول النبى محمد (ص) وأصحابه بغية هدم الدعوة المقدسة والتشكيك فيها ، وقد أشار القرآن الكريم الى كثير منها ، ومن بينها حديث الافك الذى كان افتراء على السيدة عائشة ، وقد برأها الله مما قالوا ، وحينما أنجبت السيدة مريم المسيح ، نشر اليهود حولها شائعات تمس الشرف وتشكك فى المسيح . وفى قصة امرأة العزيز ويوسف عليه السلام، صوورة أخرى من أثر الشائعات على الأبرياء . .

وفى تاريخنا الثورى الحديث ، كم ولدت أشاعات روجها الانتهازيون وعملاء الصهيونية ، والاستعمار، تحقيقا لمآربهم واثارة للفتنة وزعزعة للثقة فى النفوس ، ولكنها جميعا باءت بالفشل، لوعى المواطنين ، ولصدق القيادة وثباتها .



الرأى العام : تأثره وتأثيره

اذا كانت الحرب النفسية توجه ضد عقل الانسان ، وضد ما يفكر فيه ، فان الرأى العام — اكثر من اى قوة أخرى — هو الذى يحدد كيف يفكر الانسان ، وكيف يتصرفون . والحق ان الاراء اختلفت فى تحديد معنى «الرأى العام». واحدث التعاريف يقول : ان الرأى العام يعنى اتفاق وجهة نظر الناس تجاه موضوع ما طالما كانوا أعضاء فى مجتمع واحد . بينما يعرفه « جينزبيرج » بقوله : « انه الآراء والأحكام الجماعية التى تعمل فى مجتمع تشكل بصورة محددة تقريبا ويتمتع باستقرار محدد ، وهو نتيجة العمل المشترك لكثير من العقول » . ويرى « ادوارد روس » ان الرأى العام يتضمن: الحكم العام ، والميل العام ، والعمل العام . ويبنى هذا الحكم على الاكتشاف الذى يقول : ان راى الفرد عن نفسه لا يتكون نتيجة ادراك الحواس ، وانما يشكله الايحاء .

أن العامل الذى يقرر كثيرا من سلوك الانسان هو ما يعتقد ان الآخرين يعتقدونه . وذلك لأن تقدير الفرد لما يعتقده الناس ، هو الموجه لأعماله . وهكذا يصبح الراى العام هو المعيار ، يصبح الحكم النهائى لما يعمل ولا يعمل . فهو الموجه الأول للفرد فى تقرير سلوكه ، وطالما ظل الرأى العام مستقرا وطالما ظل بعيدا عن الاصطدام بشدة مع الحقيقة ، فانه يكون صالحا لتوجيه سلوك الانسان صلاحية الغريزة فى توجيه سلوك الحيوان .

ولذلك ، فالرأى العام قوة اجتماعية تنظيمية تدلنا على اتجاهات الناس ، وتسيطر عليها أيضا. ويشير « يونج » الى مراحل ثلاث لنمو الراى العام :

١ — نشأة الموضوع (يبدأ الراى العام بمشكلة عامة)

٢ — مناقشة الموضوع والحلول المقترحة (كمحاولة للتعرف على الموضوع ووضع الأمل فى ايجاد حل)

٣ — الوصول الى اتفاق عام (ولا يمكن ان يحدث اجماع عام أو تام بل يعطى أحد الحلول المعينة فرصة اثبات قدرته)

وبدراسة الرأى العام وقياسه وتحليله ، يمكن توجيهه وتغييره وتدعيمه فى مواجهة الحرب النفسية التى يشنها عليه العدو .

دور الدعاية :

للدعاية دور كبير وتأثير فعال فى مجالات الحرب النفسية ، وهى ترجع الى قديم الزمان. وتتكون من الاستخدام المعنى به لأية صورة من صور الاعلام العامة أو الشعبية بقصد التأثير فى العقول والعواطف لجماعة معينة لغرض عام معين ، سواء أكان هذا الغرض عسكريا ام اقتصاديا أم سياسيا . وفى مجال الأغراض العسكرية « تتكون الدعاية من الاستخدام المعنى به لأى نوع من وسائل الاعلام بقصد التأثير فى عقول وعواطف : جماعة معادية معينة، أو جماعة محايدة ، أو جماعة صديقة أجنبية لغرض استراتيجى أو تكتيكى معين » . وما لم يكن الاستخدام لوسائل الاتصال والاعلام طبقا لخطة موضوعة ، فانها لا تكون دعاية .

ويمكن تقسيم الدعاية الى أنواع ثلاثة :

● الدعاية البيضاء : التى تصدر من مصدر معروف — وكالة حكومية أو قيادة عسكرية — ويشترك هذا النوع من الدعاية مع العمليات النفسية العلنية المكشوفة .

● الدعاية الرمادية : لا توضح اى مصدر.

● الدعاية السوداء (1) : تدل على انها تنبعث من اى مصدر غير المصدر الحقيقى . وتشترك مع عمليات الحرب النفسية السرية المغطاة . وهى من احط انواع الدعاية واكثرها استخداما فى الحرب النفسية .

اما من ناحية التوقيت ، فتقسم الدعاية بصورة عامة الى نوعين : دعاية استراتيجية ليس لها تاثير مباشر واضح مرئى ، غرضها اجهاد العدو بتغييرات سيكولوجية يمكن ان تمتد على مدى شهور أو سنوات ، ودعاية تكتيكية تهدف الى تحقيق غرض مباشر قصير الأجل ، وهى عادة لا تغطى فترة زمنية طويلة.

لقد ساهمت بحوث الراى فى تحليل وتقييم الدعاية الاستراتيجية ، فحققت نتائج مفيدة ، وهى تتبع الوصف المعروف الذى وصفه « لاسويل » لبحوث الاتصالات والذى يقول : « ثمة عملية تحليل وتقييم لأربعة أشياء : الناقل Who ــ والمادة المنقولة Says What ــ والمنقولة اليه ؟ To Whom ــ ومدى التأثير With What Effect



دور المخابرات فى الحرب النفسية :

ولم تكن الحرب يوما لتعتمد على الشجاعة والتجربة فقط ، فقد كانت الموهبة العقلية تفرض نفسها دائما فى الحروب ، ولكن الحرب الشاملة غيرت اليوم المفهوم التقليدى للحرب، اذ لم تعد الحرب قاصرة على الجيوش التى تتقابل فى ميادين منعزلة ، بل امتدت الى ميادين عديدة . ومن اهم هذه الميادين ما يسمى بحرب الدهاء أو حرب المواهب العقلية ، وفيها تحتل قوة المواهب العقلية مكانها ، الى جانب القوات العسكرية التقليدية للحرب . لقد تحولت الحرب الحديثة من الاعتماد على القوة المادية الى مظاهر ذهنية فى النزاع البشرى ، والمخابرات هى العنصر الفعال فى تلك الحرب. اصبح مستقبل اى امة يتوقف على دقة المعلومات التى تصل اليها من المخابرات ، والتى تنير الطريق امام القرارات العليا للدولة فى سياستها القومية . اذ يتوقف كيان الدولة وامنها على مدى المعرفة التى تتجمع لديها . والمعرفة المبكرة للدولة امر لابد منه لتجنب المفاجأة ، ولتتمكن من وضع سياستها وادارة دفة دبلوماسيتها قبل المعارك الاستراتيجية الطاحنة. والمخابرات كعملية او نشاط عبارة عن : « المجهود المنظم لجمع المعلومات وتقديرها قطعة قطعة، وتجميعها معا حتى تتكون منها صورة اكبر واكثر وضوحا الى الحد الذى يمكن من رؤية صورة الاشياء المتوقعة . انها مجهود متواصل لاختراق الضباب المخيم على الحرب والدبلوماسية حتى يمكننا أن نرسم خطط الغد » .

ولما كانت المخابرات تهدف الى الوصول الى الحقيقة ، فهى لن تكون مجدية الا اذا اديرت على قواعد علمية صحيحة ، ترتبط فيها الأسباب والمسببات ارتباطا وثيقا . والمخابرات متشعبة الواجبات ، ولكن يمكن تقسيمها من حيث أدوارها فى الحرب النفسية الى قسمين رئيسيين :

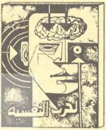
● مخابرات أيجابية : تهدف للحصول على جميع المعلومات التى يجب أن نعرفها قبل أن نتخذ طريقا معينا ، حتى يكون المسئولون على علم مقدما بما سيواجههم به العدو من اجراءات قبل وقوعها . وهذا ينطبق على المخابرات السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية وغيرها . ويشمل نشاط المخابرات الايجابى أيضا : أعمال التخريب ، الأعمال السياسية ، المظاهرات ، الدعاية ، حرب الشائعات . وكل ما يتطلب خطة ايجابية لتنفيذ أغراض معينة للمعاونة فى التغلب على العدو فى أى ميدان .

● مخابرات وقائية : اصطلاح شامل لجميع

(1) للدعاية السوداء وسائل متعددة منها : الاذاعات السرية ــ الصحف السرية ــ الوسائل البريدية المرسلة من مصادر سرية ــ تزوير العملية والنقد الخاص بالاعداء ــ تزوير بطاقات وأوراق تحقيق الشخصية ، وأساس عملها الى جانب اثارة الرأى العام وتشكيكه ، شغل الاجهزة الادارية للاعداء وتعطيلها أو ارباكها .

الاجراءات والعمليات التى تقدم بها الدولة لتحقيق امنها وحفظ اسرارها من نشاط الجواسيس ، وضد التخريب المادى والمعنوى والدعاية ، هادفة بذلك الى المحافظة على كيانها، وحدودها ، ومنشآتها . كما تشمل جميع الاجراءات التى تحرم العدو ومنظماته ومخابراته من مفاجأتنا . كذلك الاجراءات الوقائية التى تمكننا من التفوق على العدو والانتصار عليه فى جميع النواحى ، ويطلق عليها احيانا اسم « المخابرات المضادة » وهى تنقسم الى :

١ – مخابرات الأمن .
٢ – مخابرات التجسس .



ثورة ٢٣ يوليو فى مواجهة اساليب الاستعمار

واجهت الثورة العربية سلسلة من التحرشات والضغوط النفسية والسياسية والاقتصادية والعسكرية ، منذ أن شعر الاستعمار بالمواجهة الحقيقية لأول مرة ، عندما اطلق الرئيس جمال عبد الناصر عبارته المشهورة ، بعد عامين من قيام الثورة : « على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل .. » .

ان جوهر ثورة ٢٣ يوليو المجيدة ، هو انها اكتشفت طريق اليقظة العربية ، التى تمكنت من احراز النصر الكامل فى كل المعارك التى خاضتها وتخوضها فى المستقبل . ولم يتوان الاستعمار وأعوانه فى استخدام كل الوسائل النفسية للقضاء على الثورة ، وعلى فاعليتها سواء فى نظامها الداخلى ، او العربى ، أو العالمى .

ان كل انتصار حققته الثورة المصرية فى الداخل أو الخارج ، كان بمثابة انتكاسة للاستعمار فى شتى صوره ، تستخدم حياله أكثر من وسيلة من وسائل الحرب النفسيه ، ونذكر على سبيل المثل لا الحصر : مؤتمر باندونج ١٩٥٥ الدعوة لهذه الاحلاف العسكرية صفقة الأسلحة التشيكية – تدعيم الجيش وكسر احتكار السلاح وبناء السد العالى – قهر العدوان المسلح ١٩٥٦ – مواجهة الحرب الاقتصادية لتجويع الشعب – مناصرة ودعم التيار التحررى الثورى فى كل مكان – قيام ج٠ع٠م باقليميها ١٩٥٨ صدور القرارات الاشتراكية ١٩٦١ – أختيار طريق التحول الاشتراكى باعلان الميثاق الوطنى ١٩٦٢ ...

استخدم الاستعمار أساليب الحرب النفسية الخفية والعلنية ابتداء من حملات التشكيك ، والتسويف والتخريب ، واثارة الرأى العام ، والتهوين من قوة ج٠ع٠م ومن فاعلية جيشها ونشر الشائعات ، وتشويه الحقائق ، وعقد الأحلاف العسكرية ، وبناء كيانات اتحادية هزيلة ، الى الحرب المسلحة فى السويس ، والحرب المأجورة ضد ثورة اليمن ، الى الحلف الاسلامى ... لكنها فشلت جميعها وجاءت بنتائج عكسية تماما .

وبصفة عامة ، يمكن رصد الحركة التصاعدية للدعايات المعادية والضغوط النفسية التى تعرض لها الشعب المصرى عن طريق رصد نفس الحركة التصاعدية لانتصارات الشعب المصرى وتزايد مكاسبه . ولقد أشار الرئيس جمال عبد الناصر الى هذه الحقيقة عندما قال فى احدى خطبه: انه يتفاءل من زيادة نباح الخصوم لأن ذلك أعتراف حقيقى من جانب الأعداء بأننا نسجل المزيد من الانتصارات .

وعندما نصل الى الصفحة ٦١٤ – الأخيرة – من الكتاب ، تطالعنا هذه الخاتمة : « وهكذا تدور أجهزة الاعلام الاستعمارية والرجعية منذ سنوات عدة فى حلقة مفرغة تعيد اليوم ما قالته بالأمس ، مهما غيرت من اساليبها ، ونمقت من الفاظها ، واضفت عليها صفة الجدة ، ولكن كل هذا الهذيان الاستعمارى الرجعى يصير الى لا شىء .

وتبقى ثورة الشعب العربى على دربها تسير بأقدام ثابتة ، ترسم على الصخور طريق : الحرية .. الاشتراكية .. الوحدة » .

فؤاد شاكر

سيكولوجية القراءة

عرض ونقد
دكتور محمد لبيب النجيحي

للدكاترة
محمد صلاح الدين مجاور
يوسف الشيخ
جابر عبد الحميد

تحتل القراءة بالنسبة لانسان المجتمعات الحديثة أهمية كبرى فهى وسيلته للتعليم فى المدرسة ، وهى وسيلته لاكتساب المعرفة بصفة عامة بعد ذلك ، وهى بعض وسائل استمتاعه وترفيهه ٠

فالمدرسة مؤسسة اجتماعية أنشأها المجتمع لكى تنقل التراث الثقافى الذى يقوم عليه هذا المجتمع ويعتز به ٠ وهذا التراث الثقافى قد جمعته الأجيال الانسانية عبر تاريخها الطويل ودونته فى الوثائق والصحائف وعلى الجدران ، واتخذت المدرسة بعد القراءة وسيلة أساسية لفك طلاسمه وحل رموزه وتعلمه ٠

ولا تقتصر القراءة هنا على فهم ما يقرأ وانما تتعداه الى مناقشته ونقده وتحليله ، وهنا تساعد القراءة على تكوين العقل المفكر المبتكر بل انها وسيلته الأساسية ٠

ولقد تشعبت الثقافة وتعقدت ، وأصبحت القراءة وسيلة أساسية لاكتساب المعرفة فى شتى فروعها وتخصصاتها ، ووسيلة أيضا للارتقاء بهذه المعرفة الانسانية عن طريق التغيير والتعديل والحذف والاضافة ٠

واللغة أداة الاتصال الفكرى بين الأفراد والجماعات ، وبذلك تكون أداة التماسك الاجتماعى ووسيلة الانتماء النفسى للجماعة ٠ فالمفاهيم المشتركة بين الأفراد والجماعات ينتج عنها سلوك

الناشر : دار النهضة العربية - طبعة أولى ١٩٦٦ - ٢٣٩ ص ١٧×٢٤ سم الثمن ٦٥ ص





مشترك تقبله الجماعة من الفرد والفرد من الجماعة ويحس الفرد بذلك أنه عضو ينتمى الى جماعة يشترك معها فى كثير من القيم والسلوك والاتجاهات ، ويحس بذلك بأمنه النفسى بين رحابها •

والاتصال يقوم على مهارتين أساسيتين : مهارات الاستقبال وهى القراءة والاستماع ، وهنا يستقبل الفرد آراء الغير وأحاديثه وأفكاره ، ومهارات التعبير وهى الكفاية والتحدث وهنا يستطيع الفرد أن يعبر عما يجيش بخاطره من أفكار وقيم واتجاهات •

والقراءة من مهارات الاستقبال فى الاتصال الفكرى • واذا ما أحسنا اعداد الفرد فى هذه المهارة ، كنا أيضا قد أعددناه الى حد كبير لاكتساب مهارات التعبير •

وعملية القراءة تعتمد ـ فيما تعتمد عليه ـ على طبيعة اللغة ، وطريقة التدريس • فاللغة العربية لها خصائص ومميزات تختلف بها عن اللغات الاخرى ولذلك فطبيعة عملية القراءة لابد وأن تختلف كذلك • وهذا لا ينفى الاتفاق بين اللغات كوسائل اتصال •

وطريقة التدريس لها أهمية كبرى كذلك فى التأثير فى عملية القراءة • فلقد تعلمنا فى المدرسة الطريقة الجهرية التى تركز على الألفاظ ومخارجها وضبط أواخرها ، دون أن نعنى العناية اللازمة بالمعانى وتسلسها وترابطها ، ودون أن نعنى ـ نتيجة لذلك ـ بالقراءة الصامتة •

والكتاب الذى نتناوله الآن بالعرض والتحليل كتاب فى « سيكولوجية القراءة » ألفه ثلاثة أساتذة فى كلية التربية بجامعة عين شمس وبذلوا فيه من الجهد ما يشكرون عليه ، ولئن كانت هناك بعض المآخذ على الكتاب ، فهذا لا يقلل من الجهد الذى بذل فيه ، ومن أنه أول كتاب فى مكتبتنا العربية يتناول موضوعا تربويا أساسيا خاصا بلغتنا القومية •

وميدان اللغة العربية من الناحية التربوية النفسية من الميادين البكر التى تحتاج من علماء التربية وعلم النفس بعامة والمتخصصين فى اللغة العربية من هؤلاء العلماء بخاصة ، الجهد والعمل، والكثير من البحوث والتجارب العلمية حتى نستطيع أن نخصب هذا الميدان بما هو أهل له •

فمن الملاحظ فى مجتمعنا ، ومالا يخطئه الاجتماعى المدقق ، أن الكثير من مثقفينا لا يقرءون قراءة سليمة لا من ناحية الشكل ولا من ناحية المحتوى ، ولعل هذا أن يرجع الى تدريس اللغة العربية فى المراحل المختلفة من التعليم ، الى جانب عوامل أخرى •

والكتاب يتضمن عشرة فصول ، يتناول الفصل الأول منها طبيعة عملية القراءة والعوامل المؤثرة فيها • فالقراءة تساعد الفرد فى الاعداد العلمى وفى عملية التوافق الشخصى والاجتماعى وهى وسيلته كذلك للمتعة وقضاء وقت الفراغ • أما من حيث الاعداد العلمى فالقراءة وسيلة التعلم بالنسبة للطفل فى أول حياته المدرسية ثم هى وسيلته دائما وأبدا بعد ذلك فى التزود من العلم

والوقوف على آثار الأمم والشعوب قديمها وحديثها • وهى تساعد الفرد كذلك على اكتساب الخبرات غير المباشرة التى لم يستطع ممارستها وتجريبها والتى تحقق له التوافق مع نفسه ومع الجماعة التى يعيش فيها ، ويستطيع بهذه الخبرات الجديدة أن يسهم فى حل مشكلاته وفى حل مشكلات الجماعة بصفة عامة • والقراءة وسيلة للمتعة مازالت تحتل أهميتها الى جانب الوسائط التربوية فى المجتمع كالاذاعة والسينما والتليفزيون •

واللغة وسيلة الاتصال الفكرى ، الذى يقوم على أساس من الفهم المشترك بين طرفى عملية الاتصال أو أطرافها ، ولها نوعان من المهارات : مهارات التعبير وتتمثل فى الكتابة أو الحديث ومهارات الاستقبال وتتمثل فى القراءة والاستماع والقراءة هنا لا تتضمن الناحية اللفظية فحسب ولكنها تتضمن خبرة وتعلما وتفكيرا وتمحيصا ونقدا وتحليلا وتركيبا وحكما واختيارا وتقويما •

وعلى هذا الأساس تكون القراءة عملية معقدة تتضمن عديدا من المهارات والفهم والميل •

أما العوامل التى تؤثر فى عملية القراءة فيذكرها المؤلفون على أنها : **أولا** : القدرة العقلية ونسبة الذكاء والجنس والفروق الفردية والدوافع ، **ثانيا** : العوامل الاجتماعية **ثالثا** : العوامل الفسيولوجية •

أما بالنسبة للنوع الاول من العوامل فالقراءة تقوم على قدرات عقلية ضرورية لنجاح الفرد فى معرفة المتشابه والمختلف وعلى تذكر أشكال الكلمات وعلى تذكر المعانى لوقت طويل وفى التفكير المجرد وربطه بالاستجابة المطلوبة • والعلاقة بين القراءة والذكاء علاقة موجبة عالية ، والبنات لديهن الاحساس اللغوى أكثر من الأولاد •

أما بالنسبة للعوامل الاجتماعية التى تؤثر فى عملية القراءة فأساسها أن القراءة تحدث فى مجتمع وأن الفرد الذى يقرأ فى هذا المجتمع قد اكتسب خبرات معينة أثناء تنشئته الاجتماعية ، وتستطيع هذه الخبرات أن تؤثر فى عملية القراءة كما ونوعا ، فالقدرة على القراءة وبالتالى القدرة على التفكير تعتمد بدرجة كبيرة على الجماعة



الانسانية التي يعيش فيها الفرد الانساني والتي ينتمي اليهـا • فالفرد الانسـاني يتكون اطاره الفكري والاجتمـاعي متخذا من مكونات ثقـافة الجماعة حدودا له ، وهذا الاطار الفكري الاجتماعي هو الذي يحدد عملية القـراءة بمحددات معينة ، وهو الذي يحدد الطريقة التي يستجيب بها الفرد للقراءة ، وهو الذي يحدد المفاهيم للألفاظ وهو الذي يحدد سلوك الفرد ويوجهه •

واذا انتقلنا من البيئة الاجتماعية العـامة الى البيئة الاجتماعية الخاصة بالفرد في مستواه في التركيب الاجتماعي وجدنا أن هناك عـلاقة بين وضع الفرد الاجتمـاعي في طبقـة من الطبقات الاجتماعية وبين المستوى القرائي لهذا الفرد •

ويذكر المؤلف في ختام هذا الفصل العـلاقة بين القراءة والتركيب البيولوجي الفسيولوجي • وقد أثبتت الأبحاث أن هناك علاقة بين التركيب البيولوجي الفسيولوجي وبين القراءة ، بمعنى أن هناك علاقة بين ضعف القدرة القرائية وعدم انتظام الغدد أو نقص الغذاء أو الفيتامينات أو مشكلات الجهاز العصبي أو الدورة الدموية الى آخر هـذه العوامل التي تؤثر في سلامة البدن بصفة عامة •

على أن عوامل البصر والسمع والنطق من أهم العوامل الفسـيولوجية التي تؤثر في عمليـة القراءة ، أمـا العوامل الاخرى فلم يوضح لنـا المؤلفون ما اذا كانت تؤثر تأثيرا مباشرا على عملية القراءة أم أن التأثير في هذه الحالة يكون غير مباشر نتيجة التأثير على الجسم وسلامته بصفة عامة •

ويتناول الفصل الثاني في صـفحات قليلة لا تكاد تتعدى أصابع اليـد الواحدة المهـارات الأساسية في القراءة ، وهي قسمان : مهـارات التعرف على الـكلمات ومهارات تتصل بالفهم • والمهارة الأسـاسية في التعرف على الـكلمة هي القدرة على ربط الصوت مع المثير البصري الذي يراه القارىء ، ولهذا يجب أن يتعلم القارىء أن ما يمكن أن يقوله يمكنه أن يكتبه وأن يتعلم الفرق بين أصوات الحروف • والمهارة الاساسية في الفهم هي القدرة على ربط المعاني بالكلمات في وحدات فكرية تأخذ في الاتساع كلما ارتفع المستوى •

وفي الفصل الثالث يتناول المؤلفون موضوع الميل الى القراءة Interest in reading • ويبدأ هذا الفصل بالتمييز بين أمرين هامين هما **الميل الى القراءة والميول في القراءة** • فالميل الى القراءة يعني حب الفرد للقراءة ، وعدم الميـــل للقراءة يعني كراهية الفرد للقراءة أما الميول في القراءة فتعني أنواع الموضوعات التي يميل اليها التلاميذ في كل مرحلة دراسية ، أو في كل مرحلة نمو •

والميل الى القراءة مكتسب ولكن تحديد نمط الميل يتوقف الى حد بعيد على استعدادات الفرد الخاصة ، ويتحدد أيضا بطبيعة المادة المقدمة من حيث السهولة والصعوبة ، ويتوقف أيضا عـلى ظروف القارىء الاجتماعية والنفسـية وعلى نمط الثقافة السائد الذي يعيش فيه الفرد وعلى طبيعة الجو المدرسي والعلاقات التي تنظمه •

أما الميول في القراءة وهي أنواع الموضوعات التي يميل اليها التلاميذ في المراحل المختلفة فهي تتحـدد أيضا بالظروف الاجتمـاعية والنفسية للقارىء وبالظروف الثقافية للمجتمع وبالبيئـة التعليمية والثقافية والاجتماعية للقارىء •

وقد لخص العالمـان جراي Gray ومونرو Munroe عددا من الدراسات في ميدان الميول في القراءة ووصلا الى النتائج الآتية :

١ ـ في كل عمر وفي كل سنة دراسية تختلف عملية التفضيل في القراءة اختلافا واسعا •

٢ ـ تمثـل الخرافات المادة المفضـلة عند المتعلمين ـ صغارا وكبارا • كما أن الكتب غـير المقررة لا تقرأ بكثرة ، وكتب النثر تختار أكثر من كتب الشعر •

٣ ـ هناك اختلافات قليلة فيما يتعلق بالجنس في اختيار الكتب قبل سن الثامنة أو التاسعة وبعد سن العاشرة تبدأ الفروق بين الجنس في الوضوح تدريجيا •

٤ ـ تمثل الفترة بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة مرحلة دقيقة في نمو عـادة القراءة بسبب النمو الجسمي السريع والاختلافات في امكانيـات النشاط وفي الميول أيضا •

٥ ـ ترتبط الميول في القراءة بالقدرة العقلية وكمية القراءة ونوعهـا تتوقف بدرجة كبيرة على مهارة القارىء في القراءة •

ومن البحوث التجريبية التي أجريت على البيئة المصرية بحثان أحدهما لمعرفة موضوعات القراءة التي يميل اليها الطلاب في المرحلة الثانوية في مصر والثاني عن ميول الكبار للقراءة في منطقة ريفية في مصر •

وقد توصل البحث الأول الى النتائج الآتية :

١ ــ يفضل الأولاد فى السنوات الثلاث من المرحلة الثانوية قصص البطولة فى المرتبة الأولى ثم الموضوعات العاطفية ثم الاجتماعية ثم الموضوعات التى تتناول العلوم والمخترعات ثم قصص المغامرات ثم الموضوعات الفكاهية ثم الموضوعات السياسية ثم الموضوعات التى تبحث فى الفلسفة وما وراء الطبيعة ٠

٢ ــ أما البنات فقد اتفقن فى الميل الى بعض الموضوعات فى السنوات الثلاث واختلفن فى بعضها الآخر ٠

ففى السنة الاولى يفضل البنات الموضوعات العاطفية وقصص البطولة أولا ثم الموضوعات الاجتماعية ثم قصص المغامرات ، ثم الموضوعات الفكاهية ثم الموضوعات التى تتناول العلوم والمخترعات ثم الموضوعات السياسية ثم الموضوعات التى تبحث فى الفلسفة وما وراء الطبيعة ٠

وفى السنة الثانية يفضل البنات الموضوعات العاطفية ثم البطولة والموضوعات الاجتماعية ثم الموضوعات الفكاهية ثم موضوعات العلوم والمخترعات وقصص المغامرات ثم الموضوعات السياسية ثم الموضوعات التى تبحث فى الفلسفة وما وراء الطبيعة ٠

وفى السنة الثالثة فضلت البنات الموضوعات العاطفية وقصص البطولة والموضوعات الاجتماعية وقصص المغامرات وموضوعات العلوم والمخترعات والموضوعات الفكاهية والموضوعات السياسية وموضوعات البحث فى الفلسفة وما وراء الطبيعة ٠

وفى البحث الثانى صنف الباحث موضوعات القراءة أربعة تصنيفات ومراتب بحسب النتائج :

المرتبة الأولى : الديانات والمعتقدات والصحة والسلام والتاريخ القومى ٠

المرتبة الثانية : حياة الفلاح والتربية والتعليم والحكومة والتشريعات السياسية والعلاقات ، وعلم النفس ، وشئون المنزل والشخصيات الهامة والحرب والسلام والتغيرات والمشكلات الاجتماعية والتصنيع والشئون الاقتصادية والشعوب والأقطار والجنس والفكاهة والتقدم العلمى ٠

المرتبة الثالثة : الغيبيات والترفيه والألعاب الرياضية ٠

المرتبة الرابعة : الادب والفنون ٠

وينتقل المؤلفون بعد ذلك الى الكلام عن تنمية الميول فى القراءة ، وأهم ما فى عملية تنمية هذه الميول أن نكشفها ونتعرف عليها ثم نعمل على تنميتها ٠ ومن طرق تنمية الميول أن يكون لدى المدرس مادة جذابة وأن تساعد التلميذ مساعدة فردية وأن يشجع التلاميذ على تبادل نتائج قراءاتهم ولا شك أن التقليد والمنافسة واثبات الذات والمناقشة تلعب جميعها دورا مهما فى تنمية هذه الميول ٠

ويعالج هذا الباب فى نهايته موضوع القراءة الحرة ٠ ولما كان هذا الموضوع مرتبطا بموضوع المكتبة فقد تركناه للفصل الخاص بالمكتبة ٠

أما الفصل الرابع فيتناول موضوع مستوى الكتاب ووضوحه ، **فمن الأهداف العامة لعملية القراءة أن نضع الكتاب الملائم فى اليد الملائمة فى الوقت الملائم** ٠ وعلى هذا الأساس يتحدد مستوى الكتاب ووضوحه أو ما يسميه المؤلفون الـ Readability نتيجة التفاعل بين أكثر من عامل منها طبيعة المادة المقروءة وطبيعة القارىء نفسه ٠ والـ Readability معناها امكانية قراءة الكتاب وفهمه بالنسبة لشخص معين أو جماعة معينة فى مرحلة معينة للنمو وفى بيئة اجتماعية معينة ٠ والمعيار الذى نحكم به على امكانية قراءة الكتاب وفهمه هو :

١ ــ أن المحتوى يجب أن يكون مشوقا ٠

٢ ــ أن الأسلوب يجب أن يكون ملائما ٠

٣ ــ أن التنظيم يجب أن يساعد على الفهم الصحيح ٠

ولا زلنا فى حاجة ماسة الى بذل الجهد والقيام بالبحوث التجريبية المناسبة للحكم على امكانية قراءة الكتاب وفهمه وخاصة الكتاب المدرسى الذى نضعه فى أيدى تلاميذ المدارس فى مجتمعنا المصرى العربى ٠

ومعذرة للمؤلفين اذا انتقلنا للفصل السابع مباشرة متجاوزين الفصلين الخامس والسادس حتى نستطيع النظر الى الكتاب فى وحدة منطقية وفى تسلسل سليم ، والفصل السابع يتناول طرق تعليم القراءة وأسسها النفسية ٠ ويذكر المؤلفون فى هذا الفصل عددا من الطرق منها طريقة الحروف الأبجدية والطريقة الصوتية وطريقة الكلمة وطريقة أجزاء الجملة وطريقة الجملة وطريقة القصة أو الفقرة ٠ ويتناول هذا الفصل عرضا لهذه الطرق ونقدها ، ينتهى منه الى عدم صلاحية كل من هذه

الطرق على حدة ولكنه يمكن الجمع بين أكثر من طريقة فى تعليم القراءة والذى نأخذه على مؤلف هذا الفصل أنه لم يقدم لنا المعايير الناجحة لطريقة تعليم القراءة حتى يستطيع المدرس مثلا أن يختار من بين الطرق المختلفة التى ذكرها المؤلف ما يتناسب مع هذه المبادىء والمعايير .

ويذكر المؤلف فى هذا الباب أيضا تقسيما آخر لطرق تعليم القراءة اذ يمكن تصنيفها على أساس قراءة جهرية وقراءة صامتة ، وقراءة صامتة جهرية وقراءة جهرية صامتة ، وهنا يقع المؤلف فى نفس الخطأ الذى أخذناه عليه منذ قليل وهو أنه لا يذكر المعايير التى يمكن أن يقيم عليها المدرس طريقة توفيقية من بين هذه الطرق .

أما الفصل الثامن فيتناول التخلف فى القراءة ، والتخلف فى القراءة معناه أن التلميذ فى المدرسة أو الفرد الانسانى بصفة عامة لم يستطع أن يصل الى المستوى القرائى الذى يتناسب مع ذكائه وقدراته وتحصيله ، وعلى أساس هذا التعريف نجد متخلفين فى القراءة بين ذوى الذكاء العالى .

ومن وسائل تشخيص التخلف فى القراءة اختبارات الذكاء واختبارات القدرة على القراءة واختبارات التحصيل فى المواد المختلفة ودراسة الطفل دراسة فردية ومن وسائل العلاج ذكر المؤلف المجموعات الخاصة للقراءة الى جانب العلاج الفردى الذى يتناول كل حالة على حدة .

ويتناول الفصل التاسع من هذا الكتاب المكتبة وأهميتها فى تنمية الميل القرائى ، فلقد تعود تلاميذ المدارس على قراءة الكتاب المدرسى أو المذكرات التى تلخصه أو التى يمليها الأساتذة دون محاولة للاستزادة ودون محاولة للقراءة عن موضوعات عامة ، **فالتعود على الذهاب الى المكتبة من أهم ما تهدف اليه العملية التعليمية** . والاستاذ المشرف على المكتبة له دور كبير فى تحقيق ذلك كما أن الكتب الموجودة بالمكتبة وطريقة تصنيفها وتبويبها ، والموضوعات التى تتناولها والجو العام بالمكتبة وطريقة الوصول الى الكتاب كل ذلك الى جانب عوامل أخرى له أثره فى تشجيع التلميذ والفرد بصفة عامة على الذهاب الى المكتبة ، وتنمية ميله القرائى .

ولكننا نأخذ على هذا الكتاب عدة مآخذ أهمها :

١ ـ أنه لم يتكلم عن اللغة كأداة الاتصال الفكرى بين الأفراد والجماعات ، والقراءة احدى مهارات هذا الاتصال . ولو أنه تكلم عن اللغة فى هذا المجال لجاء كلامه عن اجتماعية القراءة منطقيا متسلسلا .

٢ ـ لم يبرز الكتاب العلاقة القوية بين المستوى القرائى للفرد ومستواه الاجتماعى فمن المعروف أن البيئة الاجتماعية لها تأثير قوى فى مدى استغلال الفرد لقدراته ومنها القدرة اللغوية ، وخاصة فى البلاد التى حرمت من التعليم ومن المستوى الاجتماعى والاقتصادى الملائم .

٣ ـ قليلا ما نجد فى الكتاب أبحاثا خاصة بالمجتمع العربى فى مجال القراءة ، وللمؤلفين عذرهم ، ولكن ايراد البحوث الأجنبية دون تقديم الحذر الواجب عند الأخذ بها أو الاحتياط عند تطبيق نتائجها ، لا نجد للمؤلفين عذرا فيها .

٤ ـ هناك موضوعات كان يجب أن تدخل فى فصول غير التى جاءت فيها مثل :

القراءة واشباع الميول كان يجب أن تدخل فى باب المكتبات .

٥ ـ هناك فصولا فى الكتاب كانت سردا لحقائق علمية دون محاولة جدية واضحة لربطها بالمحور الذى يدور حوله الكتاب مثل الفصل الخامس عن التعليم والفصل السادس عن تعلم القراءة ولو أن المؤلفين بذلوا من الجهد ما يتفق وتحقيق الهدف منها لكانت فصولا لها قيمتها العلمية فى الاطار الذى توخاه الكتاب .

٦ ـ الفصل الأخير من الكتاب ليس به ـ على طوله وتعدد صفحاته ـ ما يمكن أن يسهم اسهاما فعالا فى توضيح فكرة الكتاب اللهم الا ايراد بحثين قام بهما أستاذان فى التربية فى ميدان القراءة الصامتة فى الجمهورية العربية المتحدة .

٧ ـ تحتاج بعض الفصول الى اعادة كتابتها من الناحية المنطقية على الأقل مثل فصل التخلف فى القراءة ، حيث لا يظهر فيه التسلسل المنطقى .

٨ ـ فى الفصل الثالث تداخل كثير قد يشوش على القارىء وضع فكرته وبلورتها اذ نجد فيه تداخلا بين الميل والميول واستخداما لاحدهما مكان الآخر ، وتداخلا أيضا بين طرق تنمية الميول . .

على أن هذا كله لا يقلل من أهمية الجهد الذى بذله المؤلفون فى محاولة جديدة رائدة فى ميدان مايزال بكرا على الرغم من أهميته وحيويته .

د. محمد لبيب النجيحى

عبد الله النديم

بين الفصحى

ما من شك فى أن الذين يؤرخون للأدب العربى الحديث يصادفون صعوبات كثيرة فى تأريخ هذا الادب من ناحية ، وفى تقييمه من ناحية أخرى . وترجع هذه الصعوبات الى أن الجزء الأكبر من هذا الادب يقع مبعثرا فى ثنايا الصحف والمجلات التى كانت تصدر آنذاك ، والى ضياع كثير من هذا النتاج الأدبى نتيجة للظروف السياسية التى عاشها الأدباء . ثم ترجع أخيرا الى انغماس أديب العصر الماضى فى الظروف السياسية انغماسا كليا، الأمر الذى ترتب عليه أن يكون أدبه ممتزجا بالسياسة الى حد بعيد .

وربما كانت شخصية عبد الله النديم نموذجا للشخصيات الادبية التى يحتاج الباحث فى تقييم أدبها الى شىء من التأنى . فما ان يأخذ الباحث فى دراسة أدب النديم ، حتى يجد نفسه أمام شخصية فذة ظهر نبوغها فى جوانب متعددة . فقد قال النديم الشعر ، الشعر الفصيح والشعر العامى وقد برز فى كل منهما . واستخدم النديم المسرحية وسيلة للتعبير عن الأحوال السياسية والاجتماعية اللتين كان يعيشهما . ثم كان النديم خطيبا مفوها لم تشهد مصر فى تاريخها الطويل خطيبا يدانيه فى بلاغته وفصاحته وشدة تأثيره على الجمهور . ويكفى أن نعلم أنه كان خطيب الثورة العرابية ومحركها الأول . أما فى ميدان

تأليف
دكتوره نفوسه زكريا سعيد
عرض ونقد
دكتوره نبيله ابراهيم



والعامية

الصحافة فقد ترك فيه أثرا يظل يذكره له التاريخ « فالتنكيت والتبكيت » كانت شيئا جديدا على الصحافة المصرية • كما كانت « الطائف » لسان حال الثورة العرابية منذ قيامها • وأما «الأستاذ» فقد أفرغ فيها النديم كل ما يأمله من اصلاح اجتماعي •

والنديم كان كاتب مقالة من الطراز الاول ، وقد كانت وسيلته الأولى لمعالجة الداء الوبيل الذى استفحل واستشرى ، وكان يحسه احساس الطبيب بداء يتسرب فى جسم مريضه ، ولا مفر من أن يقضى عليه •

ولم يكن النديم صاحب قلم وكلمة فحسب ، وانما أثبت أنه قادر على العمل الى جانب مقدرته على القول • فزاحم فى الحياة المضطربة ، وسار وحده فى طريق غير ممهد محاولا انقاذ أبناء شعبه البائس من براثن الفقر والجهل •

وهكذا كان النديم شخصية متعددة الجوانب ، فهو أديب ، وهو صحفى وسياسى واجتماعى ، بل وشخصية بطولية عرفت المغامرات القاسية وكانت تتخلص منها تخلص البطل الأسطورى من العقبات التى تعترض طريق حياته •

ومن هنا ندرك أن بحث انتاج النديم يحتاج الى باحثين متخصصين فى جوانب عدة فانتاجه الادبي يحتاج الى أديب متخصص ، وانتاجه الصحفى يحتاج الى صحفى متخصص كذلك • وبالمثل فان نشاطه السياسى والاجتماعى فى حاجة الى متخصصين فى هذين المجالين • واذا ما درس النديم على هذا النحو ، فاننا نستطيع أن نقول اننا قد وفينا هذا الرجل حقه من الدراسة •

واذا نحن أحصينا الأعمال التى كتبت حول النديم ، فاننا نلاحظ أنها تنقسم قسمين: دراسات عامة تتعرض لشتى جوانب نشاطه الكتابى والعملى مثل كتاب « عبد الله النديم خطيب الوطنية » للدكتور على الحديدى ، ثم دراسات خاصة • تتركز حول جانب من جوانب نتاجه المتعدد • فقد درس كل من الدكتورين عبد اللطيف حمزة وابراهيم عبده عبد الله النديم الصحفى وذلك فى ثنايا كتابيهما « أدب المقالة الصحفية فى مصر » و « أعلام الصحافة العربية • كما درس الأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الرافعى نشاط النديم السياسى • وبالمثل فقد درس عبد الله النديم بوصفه زعيما من زعماء الاصلاح دراسات عدة نخص منها ما ألفه الأستاذ أحمد أمين تحت عنوان « زعماء الاصلاح فى العصر الحديث » ، وما ألفه الدكتور عزت عبد الكريم حول « تاريخ التعليم فى مصر » وتبقى بعد ذلك الدراسات التى تمت حول عبد الله النديم الأديب • واذا كان عبد الله النديم قد ألف المقامة والمسرحية والخطبة والأدب الفكاهي والشعر الفصيح والزجل ، فانما نلاحظ أن نشاطه الأدبى قد تنوع كما تنوعت ألوان



نشاطه المختلفة . واذا شئنا بعد ذلك أن نقيم نشاطه الأدبى بوصفه كلا ، فلا مفر من دراسة أنواع انتاجه الأدبى كل على حده . وقد حدث هذا بالفعل ، أو لنقل تحققت بعض جوانب هذا البحث . فقد أشار الأستاذ محمد يوسف نجم الى مسرحياته ، وذلك فى كتابه « المسرحية فى الأدب العربى الحديث » ، كما درس بوصفه كاتبا فكاهيا فى كتاب الاستاذ أحمد محمد الحوفى « الفكاهة فى مصر » وفضلا عن ذلك فقد درس نتاجه الأدبى بصفة عامة فيما كتبه الاستاذ عمر الدسوقى فى كتابه « فى الأدب الحديث » .

وقد صدر قريبا كتاب يتناول انتاج النديم الأدبى من زاوية أخرى وهو كتاب « عبد الله النديم بين الفصحى والعامية » للدكتورة نفوسة زكريا سعيد ، المدرسة بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية . وقد سبق للباحثة أن ألفت كتابا حول « تاريخ الدعوة الى العامية وأثرها فى مصر » ، وأشارت فيه بطبيعة الحال الى عبد الله النديم ونتاجه الأدبى باللغة العامية . ويبدو أن هذا الموضوع كان ما يزال يلح على الباحثة ، فشاءت أن تستكمله ببحثها هذا . فقد أرادت أن توضح موقف النديم من الفصحى والعامية تحديدا كاملا . **ويبدو أن الباحثة خشيت أن تتخذ أصحاب دعوة العامية فى عصرنا الحديث ، من وفرة انتاج عبد الله النديم باللغة العامية ناصرا لدعوتهم ، ولذلك فقد شاءت أن تبرىء النديم من هذه التهمة** فهى تقول فى المقدمة : « وهذه الدراسات هى التى جعلتها فصولا لهذا الكتاب ، وأرجو أن أكون قد وفقت فى معالجتها لما لها من أهمية لا بالنسبة الى النديم فحسب ، وانما بالنسبة الى قضية من أهم قضايانا الأدبية المعاصرة ، قضية الفصحى والعامية » كما أنها تقول فى الخاتمة بعد أن فرغت من تأكيد دعوة عبد الله النديم الى استخدام الفصحى ونبذ العامية على الرغم من استخدامه العامية فى كثير من كتاباته : « فأعداء الفصحى الذين اتهموها بالجمود والصعوبة ، وزعموا أنها بدع فى اللغات فى صعوبتها ، وتنبئوا لها بالموت كما ماتت اللاتينية ، وحملوها مسئولية انتشار الأمية فى مصر ، وافتقار البلاد الى ثقافة شعبية ، واعتبروا دراستها مضيعة للوقف ، ونوعا من أنواع السخرة العقلية ، وسبب تخلف المصريين عن ركب الحضارة والمدنية ، والعائق الوحيد الذى يمنعهم من الابتكار والاختراع الى غير ذلك من الاتهامات التى لفقوها ضد الفصحى ، هؤلاء الأعداء المغرضون أو الجاهلون بحقيقة الفصحى ، حسبنا أن نقدم اليهم النديم ــ سيرة وانتاجا ــ ليروا كيف استطاع وهو الذى لم يتعلم الفصحى فى مدارس أو جامعات ، ونشأ فيها نشأة عصامية بعد دراسة معهدية لا تزيد عن أربع أو خمس سنوات ، ولم يتعلم لغة أجنبية ، أن يدخل تاريخ العربية الفصحى أديبا وعالما ومدافعا ومصلحا وأن يدخل عن طريق لسانه وقلمه العربيين تاريخ جهادنا الوطنى » .

ولسنا ندرى من يكون هؤلاء الذين تسميهم الباحثة أعداء الفصحى . فربما تعنى هؤلاء الذين ما زالوا يناصرون العامية فى عصرنا ، والا فليس هناك ما يدعو لأن توقظ هؤلاء **الموتى** الذين اتخذوا من الدعوة الى العامية فى عصر النديم وسيلة لتحقيق أغراضهم السياسية ، فتلفتهم الى فساد دعوتهم ، بخاصة وأن دعوتهم قد ماتت فى حينها . ومما يؤكد لنا انها توجه كلامها الى هؤلاء الذين ما زالوا يناصرون العامية قولها كذلك فى المقدمة : « أما أنصار العامية الذين أشاروا بمميزات العامية : الحيوية وسرعة الأداء وعذوبة الألفاظ وظرائق التركيب والعبارات مما لا نظير له ــ فى رأيهم ــ فى الفصحى ، وزعموا أن كل ما ينقص العامية لتكون لغة أدبية هو ضبط قواعدها ونشر آدابها ، وكثرة المران على استخدامها ، حتى يفتتن الناس بها ويتخلصوا من العربية الفصحى

أو على حد قولهم – من العذاب والظلم والطغيان والبغي الذى يعانونه من دراسة الفصحى ، فهؤلاء حسبنا كذلك أن نقدم اليهم النديم – سيرة وانتاجا – حجة لادحاض مزاعمهم » ثم تستطرد وتقول فى خاتمة هذه الخاتمة : « ولعلنا بابراز هذه الحقيقة نكون قد أسهمنا فى تقديم برهان جديد ليحسم النزاع الذى ما يزال قائما بين المتخاصمين فى قضية الفصحى والعامية » .

وربما دعانا كل هذا لأن نستخلص هدف البحث ، وهو دحض مزاعم هؤلاء الذين ما زالوا يناصرون العامية . وبعبارة أخرى أن الباحثة قد ألبست القضية الجديدة رداء قديما نسبيا ، أى أن البحث لا ينصب على أدب النديم نفسه الفصيح منه والعامى بقدر ما ينصب على توضيح هذه القضية قضية الخصومة بين العامية والفصحى .

ومن ثم نعود فنوضح الفرق بين الخصومتين ، وان بدا فى ظاهرهما أنهماخصومة واحدة ، ونعنى بذلك الخصومة بين العامية والفصحى فى عصر النديم ، والخصومة بينهما فى أيامنا هذه ، ان كانتهناك خصومة حقا . أما الخصومة بينالعامية والفصحى فى عصر النديم ، فنود أن نشير بادىء ذى بدء أن المؤلفة لم تنفرد بالاشارة الى جهود النديم فى دحض آراء الذين يدعون الى العامية ، فقد سبقها الى ذلك كل من كتب حول النديم على وجه التقريب ، اذ أن **دفاعه عنالله الفصحىيمثل حلقة بارزة فى كفاحه الوطنى** . وقد أفاضت الباحثة فى ذكر السبب الذى دعا النديم الى



الثورة على العامية على الرغم من أن « شهرته فى الكتابة بالعامية كادت تطغى علىشهرته فىالكتابة بالفصحى » كما تقول . والسببواضح جلى وهو أن الدعوة الى العامية كانت تخفى وراءها أسبابا سياسية لم تخف على أحد من زعماء النهضة فى هذا العصر . فقد أريد بها القضاء على اللغة التى تعد المقوم الأول الذى تجمع الشعوب العربية من حولها . ويوضح الاستاذ العقاد هذا المعنى فى كتابه « أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب » اذ يقول : « ان الحملة على اللغة فى الأقطار الأخرى انما هى حملة على لسانها أو على أدبها وعلىثمرات تفكيرها على أبعد احتمال . ولكن الحملة على لغتنا نحن حملة على كل شىء يعنينا ، وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية ، وعلى اللسان والفكر والضمير فى ضربة واحدة . لأن زوال اللغة فى أكثر الأمم يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها . ولكن زوال اللغة عندنا لا يبقى للعربى أو المسلم قواما يميزه بين سائر الأقوام ، ولا يعصمه أن يذوب فى غمار الأمم فلا تبقى له باقية فى بيان ولا عرف ولا معرفة ولا ايمان » .

ومن الطبيعى اذن أن يتصدى النديم لهذه الدعوة ، وان كان يميل الى الكتابة بالعامية . ومن الطبيعى كذلك أن يعزف عن الكتابة بالعامية عمدا بدافع الحماس للغته ووطنيته وهو المواطن الثائر الأول . ولو أن النديم تحمس للفصحى بدون دافع سياسى لتعرضت دعوته لتقييم من نوع آخر .

فاذا انتقلنا الى موضوع الخصومة بين الفصحى والعامية الذى نعيشه الآن ، فاننا نلاحظ أنها خصومة تختلف تماما فى أسبابها وهدفها عن الخصومة فى عصر النديم . ولا أعتقد أن هذه الخصومة تخفى وراءها غرضا سياسيا للاعتبارات الآتية : أولا : أن لغتنا سلمت من مزاحمة اللغات الأجنبية وقد أصبح لها كيانها المستقل ، بحيث أنها تقف مع اللغات العالمية الأخرى جنبا الى جنب . ثانيا : أن الضغط الأجنبى علينا الذى كنا نعهده فى العصور الماضية ، والذى كان يحاول فرض لغته على أبناء الشعب ، قد تلاشى تماما . ثالثا : أنه لم يضم داعية فى عصرنا الحاضر مثل وليم ولكوكس

وتصدى للفصحى بحيث يعبىء الباحثون جهودهم لمحاربته واسكاته على الفور .

على أننا نتساءل بعد ذلك : **ماشكل الخصومة اذن فى عصرنا وما هدفها ؟ الواقع أنها لا تعد خصومة بمعنى الكلمة ، وانما هى لفتة من جانب هؤلاء الذين ينزعون الى الكتابة بالعامية لاعتبارات لا يجب اغفالها** . فمن هؤلاء من يرى أن تعرض المسرحيات باللغة العامية حتى يقبل جمهور الشعب على مشاهدتها والاستمتاع بها . وليست هذه دعوة خاطئة طالما أن المسرح هو أقرب الفنون الأدبية لحياة الشعب . ولقد شاهدت بنفسى مسرحية ليونسكو وهى مسرحية «الكراسى» مصاغة باللغة العامية . وخرجت وقتئذ مستمتعة بالمسرحية دون أن أشعر بأن اللغة العامية قد انتقصت من فكرتها الفلسفية . على أننا نلاحظ أنه حتى هؤلاء الذين يقفون فى الجانب الآخر المعارض ، لا يرون مفرا من تبسيط لغة المسرحية حتى يشعر الجمهور المشاهد باندماجه تماما مع قطاع من واقع الحياة التى يعيشها .

هذا بالنسبة للمسرح ، أما بالنسبة لمن يكتب شعرا بالعامية ، فالواقع أنه لا يحق لنا أن نغفل البحث عن السبب الذى يدعو هؤلاء الى التعبير بالعامية ، بخاصة اذا كانوا غير عاجزين عن التعبير بالفصحى . فلماذا كتب بيرم التونسى الزجل ولم يكتب الشعر الفصيح ؟ ولماذا كتب النديم بالعامية وهو المالك لناصية الفصحى ؟ قد يقال ان النديم بصفة خاصة قد رأى ضرورة اتخاذ العامية وسيلة لتثقيف العامة وتشجيعهم على قراءة مقالاته الاجتماعية . على أننا لا يمكننا النظر الى براعة النديم فى قول الزجل ومقدرته التى أثبتها أمام الأدباتية تلك النظرة الموضوعية البحتة . **فمما لا شك فيه أن النديم كان يحب العامية ويحب فنونها بخاصة فن الزجل . وهذا الحب تولد عنده من حياته الشعبية ، وبسبب حبه للشعب** ، وهذه المقومات الأولى للشاعر زجل النديم والأدباتية لكى تعرف أن الشعب قد وجد أديبه الذى يحب أن يستمع اليه ويروى الشعبى أو الأديب الشعبى . ويكفى أن تعرف كيف أن ألوفا من أبناء الشعب احتشدوا لسماع عنه . وأحسب لو أن رجال السياسة المغرضين لم يدعوا دعوتهم المغرضة الى تشجيع العامية ونبذ الفصحى ، لاستمر النديم يؤلف بالعامية الزجل وغيره ، ملبيا بذلك مشاعر نفسه الطبيعة .

ومن ثم فانه يتحتم علينا أن نبحث كلا من أدب بيرم التونسى وأدب النديم العامى من زاوية شعبية أى بوصفه أدبا شعبيا ، لأن الباعث عليه أولا ليس التعبير الذاتى الصرف ، كما هو الحال فى الأدب الفصيح ، وانما التعبير الشعبى الذى يلبى احساسات الشعب ، بل واحساسه هو بوصفه فردا من أفراد هذا الشعب .

كل هذا يدفعنا الى القول بأن الدكتورة نفوسة لم تدرس أدب النديم الفصيح منه والعامى دراسة نقدية ، وانما درسته بفكرة مسبقة وهى أن الأدب مجاله الفصحى فحسب ، وأن الأديب الحق هو من كتب بالفصحى ودعا الى نبذ العامية . ولسنا هنا بصدد معارضة المؤلفة فى رأيها ، فلها أن تعبر عنه كيفما شاءت وأن تؤيده بالأدلة التى تراها . ولكننا نرى أن بحث هذا الموضوع يصلح له كتابها السابق وهو « تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها فى مصر » . أما أن تتعرض لدراسة أدب النديم الفصيح منه والعامى ، فكان يجدر بها أن تبحثه بدون فكرة مسبقة وأن تقيم أدبه العامى وأدبه الفصيح على السواء بخاصة وهى المقرة بأن شهرته فى الكتابة بالعامية كادت تطغى على شهرته فى الكتابة بالفصحى .

ونعود الى بداية المقال فنقول ان عبد الله النديم ، تلك الشخصية الفذة ، المتعددة الجوانب، فى حاجة الى دراسات متخصصة متعددة . ولعل انتاجه الأدبى لم ينل بعد حظا من الدراسة المتخصصة العميقة .

د . نبيلة ابراهيم



العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح

تأليف
دكتور لويس عوض

عرض ونقد
محمد عبد الله الشفقي

بيروت ٤٤١ ص١٧+ ٢٤
الناشر دار الطليعة

ثمة كتب يؤلفهاأصحابها ويضعونها في الادراج · ربما لعدم اطمئنانهم الى امتيازها الفنى · ربما لضغوط في الخارج تحول دون ظهور العمل لى النور · وتكون لهذه الكتب رسالة قد تلعب دورها لو ان هذه الكتب ظهرت في حينها · فاذا ظلت الكتب حبيسة الادراج وظهرت بعد ميلادها الحقيقى بسنوات عديدة ، وبعد تغير الاحوال ·· عندئذ قد يضيع معنى « الرسالة » ويتحول العمل الفنى الى « وثيقة تاريخية » ·

ينسحب هذا الكلام على مؤلفات كثيرة ظهرت في بلدان متفرقة · وينسحب على « العنقاء » ·

ولو سلمنا بهذا الرأى لما وجدنا مبررا لقول الدكتور لويس عوض في مقدمة روايته ، وهو يتحدث عن رد فعل توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزى اثر قراءتها :

« أما مصدر انزعاجى فهو ان هذين الاديبين الكبيرين قرءا في روايتىمعانى لم أقصد اليها حين أقدمت على انشاء هذه الرواية · فقد كنت أعتقد وأنا أكتبها انى انما كنت أنشىء رواية فلسفية تعالج مشكلة العنف فىالمجتمع الانسانى لاأكثر ولا أقل ، فاذا بتوفيق الحكيم وحسين فوزى يجمعان على أن روايتى سجل دقيق لمجتمع الشيوعيين المصريين في الفترة التاريخية التى تصورها الرواية ، فترة الحرب العالمية الثانية وأعقابها مباشرة ، سجل ماكان لأحد أن يدونه الا اذا ··· » ص ٥١

لعل هذا يؤكد أيضا تلك البديهية: ان موقف القارىء من العمل الفنى يتغير بتغير الزمان والمكان مهما حاول القارىءأن يتجرد ـأمام العمل الفنىـ من الزمان والمكان · ان رنين «العنقاء » اليوم ، فى أذن القارىء ، هو رنين رواية نستعير لغة الافلام لوصفهافنقول انها رواية وثائقية أو تسجيلية ··· بصرف النظر عن حظ هذا التوثيق من الصواب والخطأ ·

كذلك ضاق الدكتور لويس عوض

بما اعتبره تضاربا فى الآراء « ناجم فى ظنى من قياس العمل بمقاييس ليست مستمدة من العمل الفنى ذاته . فأنا لم أقصد أن أندد به ... » ص ٥٢ . ولعله يطلب المستحيل حين يطلب من كل قارىء لهذه الرواية بالذات التجرد الكامل وقياس العمل الفنى بمقاييس مستمدة من العمل ذاته . ذلك ان العنقاء تثير فى القارىء موقفا ، مع البطل أو ضد البطل ، مع المؤلف أو ضد المؤلف ، أو تجعل القارىء - على أقل تقدير - يرضى عن أشياء وينقم على أشياء . **ان طبيعة الموضوع تحدد نوع النقد !** فلو رسم فنان لوحة عن اللاجئين ، وصورهم بمفهوم معين ، لاستحال على ناقد اللوحة أن يحصر كل همه فى نقد اللون، والخطوط ، والابعاد، والكثافة، والى أى مدرسة تنتمى اللوحة . ان لوحة اللاجئين ستجر الناقد الىمواقف أخرى حياتية ، مواقف تتصل به ولا تقتصر على منطق اللوحة الداخلى .

ومما يسهم فى اثارة مواقف تجاه هذه الرواية انها رواية ايديولوجيةعلى نحو صارخ ، ولو لم يكن لويسعوض فنانا لأفلت الزمام من يده وخرجعلينا بمنشور بدلا من رواية متماسكة (لا ينفى هذا ان الزمام كان يفلت من يده أحيانا) . هى رواية أيديولوجية على نحو صارخ . ثمة روايات خلفيتها سياسية (روايات نجيب محفوظ على سبيل المثال) اما العنقاء فسياسية بصراحة : المسرح سياسى ، والخلفية سياسية ، والاشخاص غارقون فى السياسة .

* * *

فاذا عدنا الى التاريخ الذى ذكره المؤلف موعدا لتاليف العنقاء اتضحت خصوبة الاربعينيات فى حياته ، طالب بعثة » ومقدمة « بلوتولاند » و « محاكمة ايزيس » التى لم تظهر بعد .



توفيق الحكيم



حسين فوزى

ألف الدكتور لويس عوض «مذكرات طالب بعثة» عام ١٩٤٢ وألف «العنقاء» فى الفترة من أكتوبر ١٩٤٦ الىسبتمبر ١٩٤٧ . انما أذكر تاريخ الكتابين لأشير الى ما سمعته من صديق قرأ « العنقاء » : انه يرفض أن تنتمى الرواية الى تلك الفترة : ثمة بون شاسع بين « مذكرات طالب بعثة » و « العنقاء » ، ويكفى ان الكتابالاول بالعامية ، فهل تحول الدكتور لويس عوض بهذه السرعة الى الفصحى ؟ كذلك فان تكنيك « العنقاء » متقدم لا يعقل أنه ظهر فى تلك الفترةالبعيدة .. هذه هى اعتراضات الصديق . لكن ، من الممكن الرد عليها استنادا الى الادلة التالية : لا تناقض بين أن يؤلفكاتب بالعامية ثم يؤلفبالفصحى .. لا تناقض بين ظهور الكتابين من قلم كاتب واحدفىفترة زمنية متقاربة. فبين الكتابين وجه تشابه سيعرض له المقال فى النهاية . ولماذا نستكثر « تقدم التكنيك » على كاتب تشرب بالثقافات الفرعونية والهيلينية والغربية ؟ كذلك فان هناك ما يثبت تاليف « العنقاء » فى التاريخ المذكور - فى قول المؤلف انه تركها عند الدكتور طه حسين ثلاث سنوات من ١٩٤٨ الى ١٩٥١ .

ويبقى بعد ذلك أن تاريخ تاليفها وتاريخ نشرها يثيران سؤالا لم تجب عنه المقدمة ، رغم طولها ، ورغمحديث المؤلف عن الظروف التى لابست « العنقاء » ، ورغم لمحة عن « عملية الخلق » .. المؤلف لم يذكر لنا ما اذا كان قد نشر المخطوط الآن كما تركه يوم تاليفه ، أم أجرى عليه تعديلات ، أو ضمنه أشياء جديدةيريد أن يقولها ؟ ربما كانت هذه الايضاحات من حق القارىء ومؤرخ الادب .. والتاريخ .

* * *

وربما حان الوقت لنتصفح الرواية نفسها . سنجد أن حسين مفتاح محورها حقا . وقد يحسن ان نلم شتات الصفحات الطوال التى تربو على الاربعمائة لنتدبر بعض ملامح حسن مفتاح كما رسمتها الرواية .. حسن مفتاح فيه الكثير منالمثقف وفيه الكثير من فاوست ، وفيه الكثير من الرجل الذى يرأس منظمة ويفكر فىالاغتيالات والاصلاح ، وفيه من السوبرمان ، والفوضوى .. فيه ايجابيات كلهؤلاء وأحزان كل هؤلاء .

فيه من ايجابيات رجل الفكر ذلك التيقظ الرهيب . البطل يعيش فى الوعى واللاوعى ، فى أحلام اليقظة

والكوابيس ، ويسجل هذا كله • هو جهاز معقد يسجل كل الذبذبات وكأنه فى مرصد • ومن أجل هذا يحتل صفحات الرواية كلها اما بمونولوجه مع نفسه أو بحواره مع الآخرين • ومن أجل هذا أيضا يجلس ساعة فى ركن بنسيون فتحتل خواطره صفحات وصفحات •

وفيه من أحزان المفكر تلك اللحظات القاتمة النابعة من حياة الفكر المجرد المحروم من بدائية الحياة • تنتابه كثيرا لحظات يأس ، حين يظن أنه يعيش فى فراغ ، وانه ظل ، وحياته ظلال • يعيش وسط عالم من الاشباح •• وهنا ينشد الملتمس المادى الوحيد فى الناس العاديين ، لا الثوار والمتمردين والمفكرين والفلاسفة والحالمين •• ينشد الملتمس فى فتاة عادية كعايدة علم التى يعرف مدى سطحيتها وسذاجتها • انها لحظات أسى ، وقتامة فاوستية • هذه هى لحظة اليأس التى تنتاب المفكر وسط حياته المضيئة :

« انه يتحرك فى محيط الظلال •• نعم ، انه يعيش فى عالم من الاشباح ، وهو بين هذه الاشباح الشبح الاكبر • ألم يغو دسوقى ابراهيم وطه الحكيم وحكمت الحكيم •• وغيرهم وغيرهم ، ويزين لهم سبيل الكفاح ويعلمهم كيف يقرءون الكتب وكيف يقرءون الصحف وكيف يملئون الدنيا عجيجا بالمذهبيات ويتقنون الكلمة الكبيرة الجوفاء ؟ كل هذا فعله حسن مفتاح باسم الانسانية ، فماذا أصابوا وماذا أصابت الانسانية ؟ لقد جففهم حسن مفتاح كما تجفف الاسماك ووضع عليهم ملحه وتوابله وحبسهم فى احقاق محكمة • لقد كانوا أناسا هادئين متزنين فعلمهم حسن مفتاح الغضب وأودى بتوازنهم ••• » ص ١٢٥ •

بل تحل اللحظات التى تحل بكل انسان فكر ، حين يحسد الصورة المتكاملة للانسان المتكامل ، لا المخ المشلول الذى يسير على قدمين ويحلق بين السحب فقط :

« •• كانوا يطهون طعامهم بأيديهم لأنهم لا يملكون أجر الطاهى ، ولكنهم ما تذمروا يوما بل كانوا يجتمعون فى المطبخ حول الحلة يستذكرون تاريخ البطالمة ويستظهرون المفردات اللاتينية ويتجادلون فى مشكلات الفلسفة وفى عقد الاعراب دون أن يغيب عن الحلة بصرهم فيتلف الارز أو تتفحم البطاطس ••• » ص ١٢٥ ، ١٢٦ •

وهناك ، دائما ، تلك الاشارة الى الهواء البارد فى الخارج ، ورغبة البطل الابدية فى ملامسة نسائمه المنعشة • ان رجل الفكر يلهث وراء عناصر الحياة الاولى • بعد القنوط والهلوسة وخواطر الوحدة » •• اطفأ النور وفتح خشب النافذة ، وعاد الى مكانه من النافذة ، ودخل عليه الهواء باردا موجعا منعشا رده الى حالته الطبيعية أو ما يشبهها ••• » ص ١٣٢

ان حسن مفتاح ، فى بعض الصفحات ، مثقف يشتاق الى دماء الحياة « وحين بلغ حسن مفتاح هذه المرحلة من التفكير ارتاع : لقد أضاع حياته بين المحابر والتقارير والجماعات الصاخبة والقراءات والمقابلات العقيمة ، وقلما وجد نفسه وحيدا بين جدران أربعة ، جدران سميكة تعزله عن العالم الخارجى تماما وترده الى التفكير فى حاله •• والآن قد خلا حسن مفتاح الى نفسه فعلام انتهى ؟ انتهى الى أن حسن مفتاح لا وجود له • انما الموجود شبح ، شبح خاو • انما الموجود اسم على أوراق • آلة فى جهاز • مقعد فى مجلس • رقم فى خلية ، اعلان فى حائط • فكرة فى الاذهان • أما الانسان ، اللحم ذو الحقوق ، المادة المشتاقة الى الحياة ، فلا وجود لها • وتحسس حسن مفتاح جسده فبدأ بخديه ثم هبط الى صدره الضامر ثم ضغط على فخذيه ليتحقق من انه يحيا • تحسس جسده فى شوق وجزع معا ، وحين تحقق من انه يحيا اطمأنت نفسه وارتاح جسده وغمرته لذة حيوانية أقرب شىء الى لذة الجنس • لذة من لذة الكلب حين يتمرغ على الحشيش فى الصباح المشرق مستدفئا بشمس فبراير السافرة • لذة من لذة الهر حين يقبع الساعات الطوال قرب المدفأة الموقدة فى زمهرير يناير » • ص ١٣٩ •

وفى موضع آخر تتردد أزمة المثقف ، ولعنة الراس التى تحن الى تراب العناصر • يبلغ به برمه بالتجريد ، بحياة الراس ، ان يلذ له الحلول فى جسد فلاح فى الصعيد ، ويلذ له أن يعيش مع زوجة هذا الفلاح » •• هذه البنت القوية القذرة السمراء سوف تملأ حياته بحقائق واحساسات المادة حتى ينسى اللجنة المركزية وينسى المجردات ، وتملأ داره بالاطفال فتدعم صلته بالحياة » ص ٢١٤ وحين يتصور انه اتحد مع الفلاح سيد قنديل يستشعر فرحة مذهلة « انه ما أحس بوجوده فى يوم من الايام بقدر ما يحس به الآن • لقد ارتد الى نفسه بعد أن كان شتيتا فى العالمين • انه يحس بالمادة التى هو منها ، فما الطبيعة الا هو • انه يحس بأن له جسدا • كم هو قذر هذا الجسد ، وكم هو خشن • ولكنه خير من لا جسد على الاطلاق • كذلك يحس بالمادة •• » ص ٢١٤ ــ ٢١٥ •

من ملامح حسن مفتاح أيضا تلك السمة التى تقربه من فاوست فى برودة وحدته ، وتقربه من الفوضويين فى عنفهم ونزعة الاغتيال عندهم ، وتلك النظرة الى الاهوال فى هدوء يذكرنا بهدوء الابطال فى مسرح بريخت •• منذ البداية يبدو حسن مفتاح شخصا لا يهتز ببساطة • ثبت هدا وهو أمام تجربة الموت • انه رجل يتأمل كل شىء ببرود يقربه من برود العالم فى معمله ، والطبيب أمام جثة على مشرحة سبقتها عشرات الجثث • انه برود الوعى المتطرف ، والنظرة التى تحاول أن تكون كلية ، ومراقبة الذات والتأمل وهو يعرف انه يتأمل ، ومعايشة الافكار التى تنادى بالاصلاح والتى تدوس الجزئيات فى سبيل العموميات ، تدوس الجزئيات التى قد تتطلب استثناءات فى التصرف وشيئا من الرحمة ، فى سبيل العموميات التى لا ترى غير القسوة الشاملة حلا • القسوة الباردة التى تجعل البطل يركب عربة زميل الدرس سرهنك صاحب الملايين فاذا به يسأل نفسه كثيرا : « ترى ماذا سنفعل بسرهنك يوم الجيلوتين ؟ » و :

« ثم يبتسم وتبرز أسنانه ويتأمل عنق سرهنك الجالس الى جواره فى الديلمر يتأملها جيدا ، يتأملها بشراهة يتأملها بغبطة ملحوظة ، ويتصورها محزوزة أو معلقة فى حبل غليظ فلا يضطرب ••• وينزعج سرهنك أمام نظراته المتصلة وابتسامته الشيطانية الساذجة ويسأله عما يغريه بالنظر الى عنقه فيضحك حسن مفتاح ويقول : لا شىء • لا شىء • هو الخال فى عنقك حسبته قملة » • ص ١٣٧ أليس هذا ضربا من الكوميديا القاتمة التى تختلط فيها الفاوستية بالفوضوية ؟

ألا يبدو العنف أيضا حين يفكر البطل فى مصادر مال لتمويل الحزب ؟ •• ثم هناك كوارتز الذى لا يملك الآن شيئا ولكنه يستطيع بعملية جراحية بسيطة أن يرث عن أبيه مائتى ألف جنيه • ص ٣٠٣ والعنف هنا لا يتجلى فى الفكرة نفسها وانما فى طريقة معالجتها •• ببرود دون ما رحمة ، وكأنها خبر بسيط فى صحيفة مملة •

يتجلى العنف أيضا عندما يفكر البطل فى كيفية حصر المصريين الاعداء عندما يشن الحزب معركته السافرة « •• لن يتجاوزوا ثلاثة آلاف سوف يقبض

عليهم جميعا فى اليوم الاول ٠٠٠سوف يجتمعون فى عربات الكلاب اذا أمكن٠ سوف يشنقون جميعا فى اليوم الاول٠ كلهم بلا استثناء ٠ كلهم ٠ كلهم بلا محاكمة ٠ فلا متسع للشكليات » ٠ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ كذلك يبدو العنف فى حياته اليومية ، فهو يقول لمونا ربيع « أنا أحطم كل شىء أمسه ٠ حتى الجمادات ٠ لقد حطمت قلم الابنوس هذا الصباح لا لشىء الا لأنه لم يكتب بالبلاغة التى أردت ٠٠٠ » ص ٣٢١ ٠ قلنا ان عنف حسن مفتاح عنف رهيب٠ تزداد بشاعته حين يقابله بهدوء تقشعر له الأبدان : « ان نعيما كان يقترح أن تنشر اللجنة المركزية أعداء الشعب بالمناشير : من أسفل الى أعلى ، درجة درجة ، بلا مخدر ، ليموتوا موتا مقسطا ٠ ولكن اللجنة المركزية قالت انها كانت تود أن تفعل ذلك لولا خوفها من كتب التاريخ ، فأجاب نعيم بانه يقترح ذلك بالذات ليدون فى كتب التاريخ ٠ **ثم تدخل حسن مفتاح قائلا : « سابق لأوانه ٠ سابق لأوانه »** ٠ ص ٣٧٨ مجرد هذا التعليق الذى لا ترتعش فيه خلجة !

وهو يحاول أن يكون سوبرمان ٠ وفيه من صفات السوبرمان حدته وصلفه وبرودته ، وقسوته ٠ انه سوبرمان يفتقر الى قلب دافىء (لولا قصة حب مونا ربيع (ويلذ له أن يفنى الأضعف فى سبيل الأقوى مهما كان الثمن (يقتل سيد قنديل ليحل فى جسده لأنه يعتبر حياة سيد قنديل تافهة) ٠ كذلك تستبد به فى بعض الاحيان نرجسية ذهنيـة جامحة يكاد جموحها يثير التقزز والاحتجاج فى نفس القارىء ٠

وتنتهى حياة حسن مفتاح نهاية مأسوية ٠ وفى الفصل ١١ من الرواية يدور بينه وبين مونا حوار مطول جدا يلقى حسن خلاله خطبا مطولة عن الخطر المحدق باللجنة المركزية التى يتزعمها، واكتشاف سر الخطة ، وحيرته فى أمر نفسه وطبيعة علاقته بها ٠ وهـذا الفصل ، ذو النهاية المأسوية ، محاكاة لمشاهد خاصة بيسوع المسيح ٠ حسن مفتاح يتكلم عن حتمية التضحية بنفسه ، يتكلم عن العشاء الأخير فى اللجنة المركزية ، يتكلم عن الثالوث وهو هنا ماركس وانجلز ولينين٠ يرسم علامة (وهى هنا مشنقة) ومونا ربيع تغسل قدميه بالبراندى ٠ انه المسيح الجديد الذى يحمل الديانة الجديدة ، وهى كما تصورها « العنقاء » ديانة العنف ٠

* * *

ثمة حاجة ملحة الى مناقشة هـذه الرواية مناقشة أيديولوجية وأخلاقية واجتماعية لانها تغرى بذلك ٠ لكنى أترك هذا المركب الصعب لمن يحسنه ٠ وأبتعد عن هذا الاغراء القوى المخيف وانصرف الى جانب أخشى ان يضيع وسط الاهتمام بالموضوع ٠ انه الجانب الفنى الذى يتناول « العنقاء » من حيث هى عمل أدبى ٠

الواقعية هى النهر الذى تسبح فيه هـذه الرواية ، وربما كان القالب الواقعى أنسب شىء لها ، فالموضوع واقعى على نحو صارخ ومعالجته بغير ذلك تسىء اليه ٠ من أجل هذا تعج الرواية بالوصف الواقعى الذى لايرحم الوصف التقريرى أحيانا ٠ وهناك تلك النزعة التسجيلية القائمة على تراكم الحقائق : من تتبع للبطل وهو يسير، ثم مروره بأشجار ونهر وتمثال، وسيره فوق رصيف ترام ، وركله للحجر ٠٠ من ذلك أيضا صعود حسن مفتاح السلم الى شقة فؤاد منقريوس الذى انتحر: صعد السلم على مهل يعد ما فى جيبه من قروش فأحصى منها عشرين وعلبة سجائر كاملة وشيكا قيمته عشرون جنيها ، وعددا من طوابع البريد » ٠ ص ٥٨ ٠

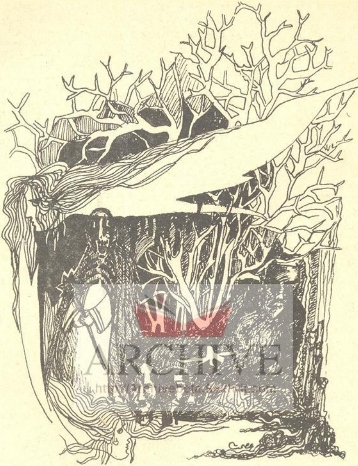
لكن هذه الواقعية تقع فى الأخطاء حين تهمل دواعى الانتقاء ، وتعتمد على النقل الفوتوغرافى الوثائقى المفرط ٠ وهذا يفسر صفحات كاملة تعالج فكرة واحـدة باطالة ، دون ما فقرات ، ومتابعة مملة لكل الخواطر التى ترد على ذهن البطل ، حتى حين لا تكون جوهرية ، وحتى حين تقتصر على تناول أفكار سبق تناولها . أفكار لا تعدو أن تكون تنوعات مملة على لحن واحد باب مملا ٠ والأمثلة كثيرة ، منها على سبيل المثـال لا الحصر ٠ الصفحات ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ٠

لكن ، ليست الواقعية قالب الرواية الوحيد ، اذ تزاحمها الفانتازيا التى تقربها أحيـانا من رواية جويس « يوليسيس » ٠ هناك ذلك الضباب اللاواقعى الخفيف الذى يرين فـوق أشياء واقعية ٠٠ جد واقعية ٠ وهناك الأحداث الواقعية التى تتم فوق مسرح خيالى (حلول روح حسن مفتاح فى جسد سيد قنديل ودخول عزرائيـل البنسيون ٠٠ الخ ٠٠) هكذا يمتزج الواقع الصارخ بالهلوسة الصارخة ٠ أحيانا يتم المزج بنعومة مثلما تمتزج لقطتان فى السينما بفعل عبقرية المونتاج ٠ لكن المزج يتم فى حالات أخرى بخشونة تؤذى الادراك ٠ فنحن مع حسن مفتـاح فى البنسيون ، وصاحبة البنسيون ـ ماريكا ـ فى المطبخ ، والكلام عن محاضر جلسات اللجنة المركزية وظلام المدخل وذهاب ماريكا وايابها ٠٠ جو واقعى جدا ٠٠ لكن عزرائيل يدخـل فجأة فى لباس رجل قزم يعتمد على عصا ويلبس رباط عنق الموت ٠٠ ولا يكتفى المؤلف بهذا بل يعالج هـذه الفانتازيا القاتمة بواقعية ٠

واذا كان الحوار بين حسن مفتاح وعزرائيل أشبه بالحوار الذى دار بين فاوست والشيطان مفستوفوليس الا انه عند مارلو منطقى داخل اطاره ٠ ونحن حين نقرأ واقع «الدكتور فاوست» يحدث لنا ما اصطلح على تسـميته ب « تاجيل عدم التصديق » ، لأننا نعرف ان الواقعة والاطار عمل فنى هو وليد الخيال ٠ أما هنا ، وسط الواقع اليومى الصارخ ل «العنقاء» ، فان دخول عـزرائيل فى صورة قزم يجادل حسن مفتاح ويهدده فى الغرفة، بينما صاحبة البنسيون فى المطبخ ٠٠ كل هذا يبدو جرعة عنيفة لايستطيع القارىء أن يتقبلها صاغرا !

هذه احدى صور المزج غير الناجح، فاذا بحثنا عن صورة ناجحة وجدناها ، على سبيل المثال ، فى واقعة ظهـور روح فـؤاد منقريوس فى الغرفة ، وانطباعهـا على المرآة ، ومخاطبتهـا للبطل ٠

والى جانب الواقعية ، والفانتازيا ، نعثر على سمات تعكس ثقافة المؤلف ـ ونقصد : الفرعونيات ، واليونانيـات ، وثقافة الكتاب المقدس ٠ وليس شغف المؤلف باليونانيـات ، ومعالجة بعض الموضـوعات داخل اطـارها ، بالشىء الجديد ٠ فقد كتب يرثى الدكتور محمد مندور تحت عنـوان « موت هرقل » ورثى الدكتور صـقر خفـاجه بنفس الاسلوب ٠ أما الفرعـونيات فمبعثرة على صـفحات الرواية وبخاصـة فى الفصل الذى يعالج حلول روح حسن مفتاح فى جسـد سيد قنـديل ٠ وبالمناسبة ، ربما صلحت قصة الحلول هذه لتفسيرات عدة « متضـاربة » ، ربما كان الهـدف منها اسـتخدام الاسلوب الاسطورى فى تجسيد الفكرة التالية : بالفعل وحده (حسن مفتاح) لا يستطيع الانسان أن يحقق رسـالة ويحيا حياة الناس ، ولذلك يحتاج الى الجسد أيضا ، والى حواس الانسان العادى (سيد قنديل) ، ومن الاثنين يتكون مزيج فـريد يخدم رسـالة الاصلاح ٠ أو قد تشير واقعـة الحلول فى جسد سيد قنديل الى أنه لـكى يفهم الثائر تشـوقات الشعب وآلامه فيجب أن يعانيها ، ومن أجل هـذا



عانى الثائر حسن مفتاح معنى حياة سيد قنديل ، بأن حل فى جسده ، ولبس ملابسه . وقد تحمل هذه المعالجة الاسطورية المعنى التالى أيضا : ان القوى المناهضة للحياة تحاول أن تبقى على شقاء الانسان البسيط وتفنى الثائر الذى يحاول انتشال هذا الانسان البسيط (عزرائيل يطالب حسن مفتاح أن يموت ، ويريد اعادة سيد قنديل، الفلاح المعدم التعس ، الى الحياة مرة أخرى) .

* * *

ننتقل بعد ذلك الى أسلوب المونولوج الذى استخدمه المؤلف . وربما كان المنولوج أنسب تكنيك لحسن مفتاح . فالمنولوج يصلح للعبقرى ، الذى ينفرد كثيرا مع نفسه ، ويفكر أحيانا لنفسه، ولا يفصح عن نواياه ببساطة للآخرين. كما انه يصلح للانسان المتوقد ، فاللحظة عنده مشحونة بأشياء تحتل صفحات . كذلك فان حسن مفتاح انسان متردد . انه (بالقياس مع الفارق الهائل) حائر بين « ان أوجد أو لا أوجد » ، ومن أجل هذا يعيش مع مونولوجاته يبثها تردده . لكن ، **ما أكثر مزالق المونولوج ! من اهمها ان المؤلفين قد ينسون أحيانا انهم مع البطل من الداخل على طول الخط ، ينسون هذا ويخرجون فجاة وبدون سابق انذار ويصفون شيئا لا يراه البطل ، وبذلك يخرجون على منطق المونولوج .**

من أخطاء التطبيق فى رواية « العنقاء » اننا مع حسن مفتاح فى خواطره أمام النافذة ، فى الحجرة المعتمة فى منتصف الليل . انه يتأمل العمارة المقابلة ، ويفكر فى الناس . ماذا يفعلون الآن ؟ ويتصور سلوك كل طبقة . ثم .. « لكنه لم يكن يعلم ان نافذة من النوافذ المنيرة كانت لخياطة روسية طغى عليها العمل ، وان نافذة أخرى كانت لسيد عجوز أعزب يطبع على الآلة الكاتبة حساب شركة من شركات السينما ... » ص ١٣٣ وما دام المؤلف قد ارتضى فى «العنقاء» عدم التدخل وترك حسن مفتاح طيلة الرواية وحيدا ، فمن الذى يتكلم الآن عما لا يعلمه البطل من أمر جيرانه ؛

كذلك يخرج المؤلف عن منطق المونولوج والرؤية الداخليــة للبطل فى مطلع الفصل الرابع : « ٠٠٠٠ ولكن حسن مفتاح لم يلتفت حتى الى أشعة الشمس المنعكسة على زجاج الصــالون الاخضر **فاستحال بها المكان الى مروج الذهب، وخطرت عرائسه الخشبية ناقصة الثياب تغتسل فى الشروق الجديد كانها حور تحلت بماسات كبــيرة يتفجر منهــا الضياء ، وتهادت على السندس المفروش فى احلام الشعراء ٠٠٠ »** ٠

وما تحته خط بالطبع هو رؤية لويس عوض الكاتب لا حسن مفتاح البطــل الذاهل عن كل هذه الاشياء ٠

وهناك فى بعض المواضع خروج على « واقعية المونولوج » ، فنحن مع حسن مفتاح فى كابوســه الهيب يوم زاره شبح صديقه المنتحر فؤاد منقريوس٠ ويدور بينهما حــوار رهيب أيضــا و « اصطفق قلب حسن مفتاح وعــلا لغطه فقد رأى نذر الشر توشك ان تنقض عليــه ٠ وعاد اليــه احساسه بالاختناق ، وسال العرق على شــعره الناعم الجميل وجرى على جبينه ٠٠٠» ونتساءل : هــل لدى حســن مفتاح فسحة من الوقت ، وشحنة من الاعصاب بحيث لا يفوته أن العرق يســيل على « شعره الناعم الجميل » ؟

كذلك تقع بعض مونولوجات الرواية فى فخ الاطالة المفرطة ، وهــو نفس الفخ الذى تردت فيه النزعة الفوتوغرافية فى الرواية ٠ وقد نخلص من هذا الى انه كان بالامكان صدور الرواية ـ رائعة متماسكة ـ فى نصف حجمها الحالى ٠ لكنها صدرت بهذه الضخامة لأن الطابع « المنشورى » يغلب عليها ٠

قلنا ان حسن مفتــاح هو محــور « العنقاء » وان الرؤية فى العنقاء هى رؤياه ، تنتقل الى القارىء من خلال حواره مع الآخرين ، وتنتقل الى القارىء ـ وبجــرعات أكبر ـ من خــلال مونولوجاته ، ونقصد مونا ربيع التى تعزف فى هذه الرواية القوطية لحن الحب ٠ وثمة احساس بان أســلوب المونولوج كان سيخدم الرواية على نحو أفضل لو هو اقتصر على حسن مفتاح٠ أما اعطاء مونا ربيع صولجان المونولوج أيضا فضرب من المحــاباة التى حرم المؤلف منها كل الشخصيات الاخرى ٠

* * *

فاذا انتقلنا الى لغة الرواية وجدناها بسيطة مبــاشرة خالية من التعقيــد والحذلقة ترتفع فى ومضات خاطفة الى مرتبة الشعر حين يرسم المؤلف ، مثلا، صورة للمدينــة الفاضلة الحــديثة « ورأى حسن مفتاح بين جفنه المطبق وقرنيته الشاخصة الى الملكوت ملايين الاقفال كلها مستديرة وكلها ســوداء وكلها لامعة ورأى فيها المفاتيح تدور فى ملايين الاقفال فى وقت واحد وأصم الصرير أذنيه فأوشك أن يصرخ ولكن اللوحة تبــدلت ورأى حســن مفتاح الفردوس الارضى » ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ٠

كذلك يلجــأ المؤلف الى أسلوب التكرار أحيانا ، كى يغمد المعنى فى فؤاد القارىء ٠ يتحدث عن اليوم الذى ستقام فيه المشانق لتتدلى منها رءوس الباشوات « وقف ٠٠ المغربى باشــا وحوله وزراؤه ، وصادق باشا وكامل باشا وفاضل باشا وعاكف باشا وعاطف باشا وعامر باشا وعادل باشا وفهمى باشا ولمعى باشا وشوقى باشا وعونى باشا ونصار باشا ونجار باشا وحلمى باشا وعمار باشا ونصار باشا ونجار باشا وستار باشا ٠٠ » الخ ٠٠ الخ٠ ص ٣٣٩ كذلك يصف حسن مفتــاح وهو يهيم على وجهه فى احدى لحظاته الحائرة « خرج على عجــل ٠ خرج ٠ خرج ٠ فارا من داره ٠ خرج ٠ وسار فى الطرقات بخطى واسعة كأنه ساع الى موعد ٠٠ » ص ١٥٥ ٠

كذلك تحقــق اللغــة ، فى لحظات التركيز الشديد ، دلالات بالغة التأثير٠ ففى سطور عاجلة يصف لنا المــؤلف دخول حسن مفتاح ووالد فؤاد منقريوس الى المشرحة ٠ وهنــاك يتعرفون على ممرض المشرحة ، ونعرف فى كلمـات خاطفة ان زوجة الممرض تعمل مولدة٠ ليا للمفــارقات ٠٠ مهنة للحيــاة ، ومهنة للموت ٠

كذلك يحقق باللغة مفارقات عابثة نحسن مفتــاح اليسارى جدا يرقص الفالس مع حبيبته مونا ربيع ، فيجد انه وهو يتحرك فى الحلبة « لايجيد الدوران الى الميسرة وانما يظل يدور فى اتجاه واحد الى اليمين ، الى اليمين، طول الوقت » ! ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ٠

* * *

وقد يبقى هذا السؤال : هل ثمــة صــلة بين حسن مفتــاح وصانعه ٠٠ الدكتور لويس عوض؟ ان الفنان يذيب نفسه فى احدى شخصياته ٠ وقــد يصرح بهذا وقد ينكره أمام المستطلعين٠ ولقد بلغ التذويب حدا جعــل بعض النقاد يقــولون ان مدام بوفارى هى فلوبير ٠ فالى اى حد ينتسب حسن مفتاح الى الدكتور لويس عوض ؟ ان



مفتاح الاجابة هو فى المقارنة السريعة بين بطل « العنقاء » وهو حسن مفتاح، وبطل « مذكرات طالب بعثة » وهو لويس عوض .

بطل «مذكرات طالب بعثة» «مصاب» بالاستيطان وهى نفس العادة التى اصيب بها حسن مفتاح. وطالب البعثة يهرب دائما من اى شىء يشتم فيه رائحة سنتمنتالية . ويصدق هذا على حسن مفتاح. وطالب البعثة يصاب أمام الحزن بجمود يقلقه ، فعندما انتحر حلمى رفاعى صديقه الأثير لم يعرف كيف يحزن وانصرف الى الآيس كريم فى جروبى . وعندما انتحر فؤاد منقريوس فى « العنقاء » قابل حسن مفتاح هذه الحادثة ببلادة أيضا .

وفى حسن مفتاح طموح السوبرمان وتشوقاته . والطموح والتشوقات من صفات طالب البعثة « المهم انى فى سن خمستاشر كنت باقرا عن كيتس وازاى مات سن خمسة وعشرين سنة ووليم بت ازاى بقى رئيس وزارة وهوه يدوبك فوق العشرين ومصطفى كامل .. و .. و .. فكان طالع ساعتها فى دماغى انى أوصل لأعلى مركز فى سن خمسة وعشرين وبعد كده اضرب نفسى رصاصة ، دا الروماتيزم بتاع اليفاعة فى العصر الذهبى .. »

وحسن مفتاح ، فى مونولوجاته ، يترك نفسه لتداعى المعانى . وطالب البعثة يقول « انا حياتى غنيه بالمواقف الغنيه لأن مخى متمرن على تداعى المعانى » .

وفى حسن مفتاح عنف الفوضويين وفى طالب البعثة أحلام الحياة فى عصر الثورة الفرنسية ، الأحلام التى تتبلور لحظة فى تصوره وهو يدخل مع « شارلوت كورداى على مارا الحمام بتاعه » .

وفى حسن مفتاح وطالب البعثة الحاجة الى قتل الحب ومغالبته فى سبيل رسالة . حسن مفتاح يطرد احدى الفتيات من ذهنه لانها زوجة بيت ويخاف من مونا ربيع ، وطالب البعثة يلتقى فى لندن بفتاة تقول له انها تحبه ، لكن « حب ايه وبتاع ايه هو انا بتاع حب ، انا جى اشتغل » .

وحسن قنديل يطوى الجوانح على عناد هائل ، وطالب البعثة يكسر لوائح كمبريدج ويسهر خارج المنزل الذى يقيم فيه ، وبدافع من العناد « انا مش عاوز اسهر بره لكن لما ييجى مستر بيفس او اى قوة على الارض تقول لى ما تسهرش بره اعمل بالعامد واسهر . دا مفتاح شخصيتى ، وافتكر ان فيه ناس كتير زيى » .

وحسن مفتاح رجل تكتيك ، يجيد المناورات ، ويمارس هذه الهواية فى انتخابات اللجنة المركزية . وهى نفس مناورات المؤلف فى انتخابات اتحاد الجامعة (مقدمة « العنقاء ») ومناورات طالب البعثة فى انتخابات نادى الفراعنة .

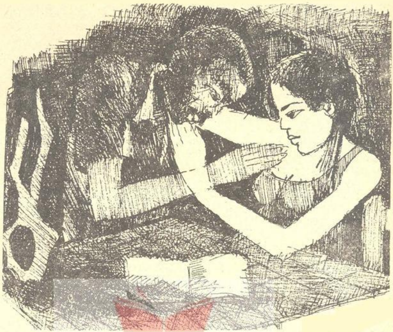
وتلعب الأحلام دورا هاما فى حياة حسن مفتاح ، وهى أحلام غير عابثة ، بالغة الحدة والاهمية . وانها لتلعب أيضا دورا فى أيام طالب البعثة ، فأثناء عودته الى الوطن ، يرى حلما كبيرا لا يلمحه الا المثقفون ، ففيه أساطير وفيه حديث عن قبلاى خان وبروميثيوس .. الخ ..

وبمناسبة الأحلام والأساطير يتشابه حسن مفتاح وطالب البعثة فى تأثرهما بالفرعونيات واليونانيات . فطالب البعثة يقول « وفى قطر باريس قعدنا جنب بعض وانا طول الوقت ببحلق فى ميا وهى مسنوده لورا قدامى تتكلم ببطء وهدوء وأتفرج على عينيها السوده الواسعة اللى عاملة زى عيون الكهنه بتاعة معبد دلف » .

ويرفض طالب البعثة الحنين الى دا احنا فى ايامنا كنا نعمل ونعمل». كذلك يرفض حسن مفتاح الماضى باهراماته وأمجاده التى تجعل أبناء الحاضر يستنيمون .

واذا كان الوعى الاجتماعى هو قضية الصراع فى العنقاء فانه هو الذى يحرك طالب البعثة أيضا ، حين يقول « فى كامبريدج لما الجنتلمان يسرق يقولوا استلف ولما واحد من البلد يسرق يقولوا حرامى . دا طبعا نتيجة لنظام الطبقات المتغلغل فى انجلترا » .. ومثلما يحيم حسن مفتاح بشنق الباشوات يقول طالب البعثة : « كان واضح ان فينا دم أزرق وشعب . وبعد آخر نقطة من الدم الازرق ماسابت دربان كل حاجة مشيت مظبوط والشعب عرف ينظم أموره » . كذلك يكره حسن مفتاح تركيا ، وبالمثل ينقم طالب البعثة عليها ويغضب من صاحبة البنسيون عندما تشرب نخب البلاد فى الاحتفال بعيد الحرية فى باريس فتقول « تحيا تركيا » .

محمد عبد الله الشفقى



تلك الأيام

نقد

الى رصيده الروائى بعد الجبل ، الرجل الذى فقد ظله ، والغبى والساخن والبارد ، ومن أين ، يضيف فتحى غانم رواية جديدة هى «تلك الأيام» التى صدرت عن سلسلة الكتاب الذهبى · ومنذ السطور الأولى نعرف أن الكاتب تخلى عن الشكل التقليدى فى فن كتابة الرواية· فهو يحاول ايهامنا بأننا سوف نقرأ حدوتة لطيفة مسلية ، ثم ينتقل مباشرة الى موضوعه · ترى ما هو ؟! · انه أيضا يحاول تخطى عالم الأحداث الواقعية المألوفة والنماذج النمطية الى عالم النفس الانسانية · وسواء أصابه التوفيق التام فى ذلك أم لم يصبه، فهو الذى يجهد نفسه فى الاقتراب منه ، واكتشاف مكنوناته الداخلية ·

فى الظاهر ، نحن أمام أستاذ جامعى ، ناجح فى حياته الأجتماعية ، مرموق المكانة ،اسمه يرن فى الأوساط الجامعية ، وعلى مستوى الدولة والناس معا · انه مؤرخ كبير ، تلقى تعليمه فى فرنسا على يد الأستاذ لافارج الذى لعب دورا فى حياته بكلماته المترسبة فى عقله ، فالمؤرخ المصرى فى ذلك الزمن اما أن يقول كل الحقيقة ويدخل السجن ، واما أن يقول نصفها ليعيش · ولقد تحقق جانب من نبوءة الأستاذ الفرنسى ، عندما ألف المؤرخ سالم عبيد كتاب «السخرة والكرباج» ففصلتهالجامعة ، ثم عاد اليها وقد وعى جيدا كلمات أستاذه الخبير· ان الذى يشغله هو البحث عن تاريخ الارهابيين فى مصر ، ما هى العوامل

تأليف فتحى غانم

عرض ونقد فاروق حبيب

الناشر : مؤسسة روز اليوسف
١٦٥ صفحة ٢٠×١٤ سم - الثمن : ١٠

التى تدفعهم الى أن يسلكوا هذا السبيل ، أهى الوطنية ، أم العلل والأمراض النفسية. ان المؤرخ لا يتجه الى الدراسة النظرية الجافة ، بل يلجأ الى الميدان التطبيقى مع أحد هؤلاء الارهابيين وهو عمر النجار . وتجربته هذه تكشف بعض الخيوط عن نفسية الارهابى وهو يباشر مهمته ، الوساوس والظنون التى تنتابه ، احساسه بالذنب ، اقتناعه بأن الموت حق على الجميع ، ومن لم يمت بالرصاص مات بغيره ، لكن الخيط الهام الذى يتمسك به المؤرخ الكبير هو محاولة الربط بين حياته الخاصة عبر علاقته بزوجته زينب وبين عمر النجار ، أو بعبارة أخرى بين دراسة التاريخ وحياته الخاصة. هنا يخفت صوت الحياة الظاهرية ، بشكلها المتعارف عليه ، ويفتح لنا المؤلف حياة بطله الباطنية ، أو الداخلية ، ليس هذا فحسب وانما حياة زوجته كذلك . ومن المهم أن ندرك أن هذه الحياة ترتد دائما الى الوراء فى شبه أحلام ورؤى نرجع الى أيام الطفولة والصبا والشباب ، ثم تتكشف فى الحاضر الحى الخصيب حيث الشيخوخة

ان المؤلف يتجه الى الأسلوب التحليلى ، مهتما بالغوص فى نفوس أبطاله وعقولهم ، مشيرا الى بعض الأحداث الحاضرة . زينب زوجة سالم عبيد نشأت فى بيئة مدللة ، كانت تحلم - من خلالها - أن تصبح أميرة أو امبراطورة ، لكن الواقع يجذبها الى منطقته ، فيعركها بين فكيه ، فتنهار الأحلام

والرؤى الطفولية السعيدة ، فتحاول تحقيقها على مستوى آخر من المسئولية والاقتناع ، ملبية رغباتها الجسدية والنفسية فى المتعة والانطلاق والفرح • ان الطفلة الساذجة الحالمة تنقلب الى امرأة خبيرة بعالم الرجال ، لا تخطىء فى تفهيم الواحد منهم بعد الآخر • وما عاد زوجها الا المشجب الذى تعلق عليه همومها ونكدها اليومى • أما الأستاذ سالم عبيد نفسه ، فانه غارق الى أذنيه فى وهمه وهيامه بالمعرفة ، فلا شىء يعادل أن يعرف الانسان ، ضاربا صفحا عن القيم الخلقية بها فى داخله ، منذ طفولته الباكرة الى شيخوخته • التى تؤرق الضمير • وربما تغلغل هذا الوهم فى نفسه عند ما لم يجد مفرا منه الا الاستمساك به، والقبض على فكرة يستطيع أن يبرر وجوده من خلالها ، خاصة بعد الهزائم المتوالية التى منى فالمؤلف يطلعنا على جانب من تلك الطفولة ، ومنه نعرف جذوره العائلية ، والعقد النفسية التى أثرت فيه ، وحفرت مجراها فى حياته بعد ذلك، فعمته زكية كانت قد حملت سفاحا ، ثم مات ابنها ساقطا فى البئر ، ولم يجد مطلقها الشيخ منصور سوى الدروشة والجنون يلجأ اليهما ، وأخوه الشيخ سليمان كان عاجزا كرجل ، ثم أخوه حامد القاتل • هذه الطفولة هى منبع الآلام يعانيها المؤرخ الكبير سالم عبيد ، بل هى التى ترجعه اليها بعد رحلة حياة طويلة منذ أن غادر قريته ، صبيا ريفيا يشتاق الى العلم ، ثم مسافرا الى باريس ، ثم عائدا الى القاهرة مرموقا ، انسان اجتماعى تلوك اسمه المنتديات والصحف والمحافل الجامعية • انه موزع بين الطفولة المرتدة كاقوى وأعنف ما تكون وبين حياته الحاضرة فى علاقته بزوجته ودراسة التاريخ ، وهو لا يفتأ يسأل نفسه « ما زلت أسأل نفسى هل أنا عاجز جنسيا مثل الشيخ سليمان ؟! » ، « أيمكننى بحث تاريخ مصر من خلال مشكلتى الجنسية وأفكارى عن الطعام ؟! ، أشعر أنى منهوك القوى ، فى الحضيض » • ولقد شعرت زوجته زينب بمأساتها معه منذ بداية صلتهما المنزلية « هذا الحطام المخرف لى ، أما العبقرية فللناس • الشعر الأشيب والنظارات والكوفية والسعال والقامة القصيرة •• كلها لى •• والعظمة والعلم والذكاء والكتب للناس » • وكان سالم عبيد يدرك معاناته المخضبة بالألم والصبر والانتظار ، تحاول السير مع التاريخ ، ولكن عقله لا يستطيع أن يستوعب قفزاته الحديثة • هو يقع فى هوة التناقض عندما يتأرجح بين حبه النقى الساذج لبلده ، تماما مثلما يحبها أى فلاح ، وبين القالب الذى صب فيه • انه الشاعر الهائم بها ، المتغنى بكل شىء فيها ، يقول « أنا مصرى ، أكلت طعام مصر ، المش والبصل والفجل والفول المدمس ، شممت هواء مصر ، شممت روث البهائم والحطب ، وملأت نفى عواصف الخماسين ، استنشقت عبير الورد البلدى والياسمين •• الخ » ، ثم هو يصرخ متألما من الواقع الذى يعيشه « هنا فى مصر من السهل أن تكون كبيرا بالغش ، زوجا سعيدا بالغش ، كل شىء ملوث بمذاق غير حقيقى » •

ان سالم عبيد بطل فتحى غانم بينه وبين اسماعيل بطل يحيى حقى فى قنديل أم هاشم وجه شبه • ان الذى يجمعهم من احدى الزوايا هو هذه الخيبة التى منى بها كل منهما عندما تعرض لامتحان تطبيق علمه فى بلده ، بل ان النهاية التى يتنبأ بها سالم عبيد لنفسه وهى الدروشة أقرب الى النهاية التى انتهى اليها اسماعيل، فهى حالة طيبة أيضا،تؤمن بالانغمار فى قلوب الناس قبل تطبيق أى علم عليهم ، بل هى تفضل الحياة معهم بكل مظاهر تخلفهم الروحى على الاستعلاء عليهم ، مع محاولة نفعهم بالعلم •

وتعد حالة سالم عبيد ـ رغم انتفاضات روحه الضنينة ـ هى حالة احباط مزمن تلتف حول رقبته ، ترغمه على الخوض فى عقد طفولته، وتجسد له فشله فى حاضره • وما أقسى أن تصاب نفوسنا باحباط مثل ذلك • انه يشل قدراتنا للحياة ، ويملؤنا ألما وفشلا وخيبة رجاء ، لا نجد فى النهاية مكانا لأقدامنا الا الهاوية ، تماما كما سقطت قدم سالم عبيد فى البئر •

واذا كنا نؤمن بأن المضمون هو الذى يحدد الشكل ، فان رواية فتحى غانم خير مصداق على ذلك • فنحن أمام شخصيتين تحاصرهما أزمة طويلة الأمد ، تضرب بجذورها الى أيام الطفولة بالنسبة لكل منهما • ومن هنا ، فان المؤلف يرجع بنا الى الماضى بين آونة وأخرى • ان الماضى والحاضر يشكلان عجينة التجربة الفنية، ويصوغان منها النزعات التحليلية التى يريدها الكاتب ، بل يخيل الينا أننا فى معمل نفسى ، نستقى منه الاعترافات التى تجىء على شكل أحلام اليقظة ،



والعقد النفسية القديمة الراسخة فى اللاوعى والوعى معا . ان الكاتب لا يريد أن ينتقل بنا من حدث منطقى الى آخر انما همه ملاحقة تحليله وتفسيره للشخصيات وكأنه فى خلفيته الذهنية يسأل عن الدوافع والأسباب التى جعلتهم يختطون هذا الطريق . وغالبا ما تكمن الاجابة فى الارتداد الى الماضى ، ربما فى أدق تفاصيله . لذا كانت العناية به واضحة فى الاتساق الزمنى العام ، فأحداث الرواية تدور فى عام ١٩٦٢ ، ولكن المؤلف يعود بنا تدريجيا عامى ١٩١٢ ، ١٩١١ ، حيث كان سالم عبيد ما يزال طفلا يفتح عينيه للحياة . ونتيجة لهذه المساحة الزمنية الطويلة ، فان علينا ــ لكى نفهم الشخصيات فى منحنياتها العاطفية أو النفسية أو العقلية ــ أن نجمع المعلومات من هنا وهناك ، بل اننا فى بعض الاحيان نشارك فى المناقشات والمناوشات التى تحدث أمامنا .

وقد فتح هذا الاختلاط الزمنى الباب واسعا أمام المؤلف ، فاستعان بأحلام اليقظة وتداعى المعانى والسرد الانسيابى المرسل الذى لا يحده الاطار الزمنى المألوف . وكما قدمت فى بدء هذا المقال ، فان المؤلف اجتاز النماذج النمطية الى طرق منافذ جديدة للقصة النفسية فى أدبنا .

أما أسلوب الرواية فهو يتراوح بين عدة أساليب ، ربما لجأ اليها للتعبير عن فكرته . ولعل أقوى هذه الأساليب وأعلاها نبضا هو الأسلوب

الشعرى ، الحار المتدفق الذى يشبه طلقات
الخلجات والوساوس النفسية المكنونة ، وهو غالبا
ما يخلو من الزوائد والاضافات اللفظية ، يتخلى
الرصاص ، فهو سريع الاصابة ، موفق لتصوير
عن حروف الجر التقليدية ، والوصف الخارجى
العام يعتمد على الايماءات التفصيلية الدقيقة
التى تجىء ربما من خلال ايماءة رأس ، أو رمشة
جفن ، أو اشارة أصبع .

ويستخدم الكاتب بعض الحيل الفنية مثل المقال والتحقيق الصحفى ليلقى المعلومات عن بطليه . ولكن أكثر الأساليب وضوحا فى رواية فتحى غانم هو أسلوب المنولوج الداخلى الذى يساعد فى الكشف عن الحياة الباطنية لأبطاله . وهذا الأسلوب يوافق الفكرة التى قصد اليها المؤلف من وراء ربط حياة الانسان فى سلسلة متصلة بين الماضى والحاضر .

واذا كان فتحى غانم يطرق لونا جديدا ليس له تراث كبير فى روايتنا العربية المعاصرة ، وهو القصة النفسية ، فان عمله تحمل بعض مشاق التجربة . فنحن ننتهى من روايته غير مقتنعين بأنها انتهت فعلا ، فخط التحليل يمكن أن يستمر طويلا . وأيضا فان أسلوبه كان يفلت منه فى بعض الأحيان ، هابطا الى التحليل الانشائى الذى لا يضيف جديدا . ومع ذلك فارتياد الطريق الصعب بكل مشاكله وعقباته يدفعنا الى تقديره والوقوف الى جانبه .

« فاروق منيب »



قلبي

للشاعر

محمد ابراهيم أبو سنه

عرض ونقد :

حسن توفيق

وغازلة الثوب الأزرق

اذا كانت المحاولات التجديدية فى الفنون المختلفة ـ كالرسم والنحت والمسرح ـ قد سارت فى طريقها بخطى ثابتة مطمئنة ، فان الشعر الحر لم يزل حتى الآن موضوع نقاش ومثار مشاحنات . والحقيقة أن السبب فى هذا يرجع الى أن للشعر العربى منزلة كبرى لدى الأمة العربية ، كما أنه يحتل مكان الصدارة فى أدبها القديم ، نضيف الى هذا أن المتذوقين للأدب عندنا قد نشأوا يعتنقون آراء مسبقة عن الشعر وماهيته وأوصافه جعلتهم لايتقبلون الشعر الحر ببساطة ويسر .

من هذا كله كان لابد أن توجد هوة عميقة بين الشاعر الحديث وبين قارئه . وحقيقة الحال تثبت أن الشعراء الجدد أنفسهم قد ساهموا مساهمة كبيرة فى ايجاد هذه الهوة العميقة التى تفصل بينهم وبين القراء .

ولا شك أن هذه الظاهرة مؤسفة تتطلب منا أن نقف عندها محاولين تبين أسبابها قدر استطاعتنا .

نقول هذا بمناسبة صدور ديوان « قلبى وغازلة الثوب الأزرق » وهو الديوان الأول لشاعرنا الشاب محمد ابراهيم أبو سنة ، وان كان هذا لايعنى بطبيعة الحال أن هذه الظاهرة المؤسفة تقتصر على شعره وحده ، وانما هى ظاهرة عامة يشترك فيها أغلب شعراء جيله ولا نكاد نستثنى منها الا عدة قصائد للشاعر محمد مهران السيد لها نكهتها الخاصة التى تتمثل فى الايمان بالحياة والتفاؤل المشرق بالمستقبل من

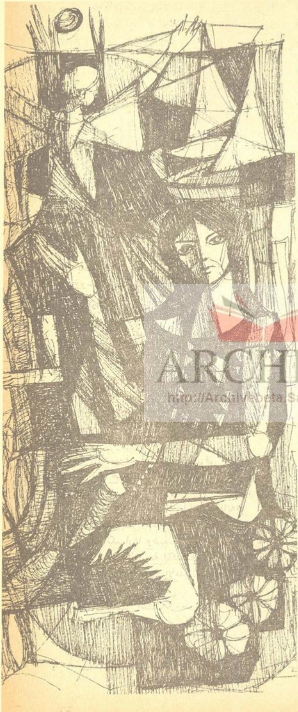
خلال التقاء الانسان بالانسان التقاء أخويا صادقا • فهذه الهوة العميقة التى تفصل بين الشعراء الجدد وبين قرائهم لها مظاهر عديدة أسهم فى ايجادها كلها أو بعضها هؤلاء الشعراء فهناك اعتقاد سائد بأن الشعر الحديث أسهل بكثير من الشعر العمودى • هذا الاعتقاد دفع الكثيرين من ذوى المواهب الضحلة الى أن يقتحموا ميدان الشعر بقصائد هزيلة لا تحمل فى أعماقها مقوما واحدا من مقومات الفن الحقيقى • ولا شك أن القراء معذورون اذا أخذوا الجيد بذنب الردىء لأن طبيعة العصر لاتعطيهم منحة من الوقت لفرز الجيد من الردىء • وفى هذه الحالة لن يكون أمامنا سوى انتظار أن يغربل الزمن النموذج الصالح من الطالح ، وسوى دعوتنا للشعراء الموهوبين ـ أمثال شاعرنا أبو سنة ـ الى أن يقوموا بعملية فرز قاسية لقصائد دواوينهم القادمة قبل أن يقدموا على نشرها بغرض تبين ما يستحق الحذف منها •

كما أننا نلاحظ أن الروح النثرية قد استقطت كالكابوس على كثير من قصائد الشعر الحر فمنعتها بذلك من التحليق فى سماوات الشعر بأجنحة العذوبة والشفافية • ولعلنا لا نغالى اذا قلنا ان هذه الروح النثرية تستلقى بكل ثقلها على كل قصائد ديوان أحد الشعراء الجدد وهو ديوان « أغنيات مصرية » لمجاهد عبد المنعم مجاهد • وقد يتعلل بعض النقاد بأن الشعراء الجدد يحاولون الاقتراب من روح الحياة المعاصرة وانهم ـ تبعا لذلك ـ يتعمدون ادخال النثرية فى شعرهم ، لكن هذا تعليل لا يقوم على أساس سليم ، فالحقيقة أن عدم عناية هؤلاء الشعراء بتهذيب شعرهم وقلة اطلاعهم على التراث الشعرى وضعف احساسهم بايقاعات الألفاظ وايحاءاتها المعنوية والموسيقية هى الأسباب التى أفضت الى تلك النثرية • ونحن وان كنا نبرىء أبو سنة من تهمة عدم الاطلاع على التراث الشعرى خاصة وأننا نعلم أنه ـ بحكم دراسته الأزهرية ـ قد قرأ عددا من شعراء العربية الكبار أمثال المتنبى وابن الرومى وأبو العلاء ، الا أن ظاهرة النثرية ملحوظة وواضحة فى بعض قصائد ديوانه هذا مثل « الذين يسرقون حبكم » و « نرجس والمدينة » و « من صور الاقطاع فى الماضى » و « لعبة » التى يقول فيها الشاعر على لسان أب فقير طلب منه ابنه الصغير أن يشترى له لعبة معروضة فى أحد المجلات :

كأنة حزينة بلا انتهاء
نسير يا عزيزى الصغير
نصيبنا من الحياة أن نسير
فتلك لعبة كبيرة الثمن
لطفلة من غير جنسنا
وقومها الكبار يملكوننا
ويملكون عالما من الذهب

أى فرق بين هذا الكلام وبين فقرة من مقالة وعظية من تلك المقالات التى تدعو الفقراء الى سيخلدون فيها فيما بعد ؟ ان الكلام الطيب لايكفى وحده لأن يصنع شعراحقا يثيرنابعذوبته

ومما أدى أيضا الى اتساع الهوة العميقة التى تفصل بين شعرائنا الجدد وبين قرائهم مايلجأ اليه هؤلاء الشعراء من مبالغة فى استخدام الاساطير العالمية بعامة والاغريقية بخاصة ، ان أخذ معظمهم ـ بدافع التقليد ـ يقحمونها ويزجون بها فى قصائدهم فكانت النتيجة أنها بدت للقراء باردة جافة أشبه فى برود منطقها وجفافه بنظريات الهندسة ومعادلات الكيمياء ، ولقد كان النقاد يعيبون على الشعر أرستقراطيته نتيجة نشأته فى بلاط الملوك والأمراء ولتصويره لحياة طائفة محدودة من الناس ، فاذا بشعرائنا الجدد الذين يقحمون الأساطير فى شعرهم يكتبون لأنفسهم ولطائفة من أصدقائهم تعد على أصابع اليد • ونحن قد نتسامح مع بعض هؤلاء الشعراء على أساس أن فكرهم قد أتخم بالثقافة الغربية بصورة كبيرة جعلتهم يتغافلون عن نداءات أصالتهم الحقة • نحن قد نتسامح مع هؤلاء ، لكن كيف نتسامح مع شاعرنا الأصيل محمد ابراهيم أبو سنة ونحن نراه يطمس وجه أصالته بهذه الأساطير التى يثقل بها قصائده دون أن تتمثلها نفسه الشاعرة ؟ وكيف نتسامح معه ونحن نعلم أن ثقافته ثقافة أدبية كلاسيكية كنا نرجو أن تبعده عن هذه الهوة ؟ أهو رد فعل من الشاعر يحاول به أن يثبت أن ثقافته الأزهرية لم تمنعه من أن يكون انسانا معاصرا ؟! أم أنها عدوى تقليد أحدث « الموضات » ؟!! (نلاحظ فى هذه الأيام أن عدوى التقليد قد انتقلت الى التصوف • فمنذ أن كتب شاعرنا الكبير محمود حسن



اسماعيل قصائد عديدة تصوفية النزعة فى ديوانه « قاب قوسين » ومنذ أن كتب صلاح عبد الصبور « مأساة الحلاج » وكتب عن مأساته أيضا عبد الوهاب البياتى ، بدأت مجموعة من شعراء الجيل التالى تدرس التصوف وتهتم بأمره · ولعله أن يكون موضة الشعر فى الموسم القادم !!)

ان قارىء ديوان محمد ابراهيم أبو سنة يصطدم دائما بأعلام وشخصيات الأساطير الاغريقية لأن الشاعر يقدمهم له دون أن يمهد لهذا التقديم بتمهيد فنى يرتاح اليه القارىء · فالقارىء يلتقى ببروميثيوس ونرجس وبنلوبى وأرديسيوس كما يلتقى بيزيف ذلك المسكين الذى يخيل الى دائما أنه يتعذب من حديث شعرائنا عنه أكثر مما يتعذب من رفع صخرته الى أعلى الجبل !! ولا يكتفى شاعرنا بهذا الحشد من الأساطير ، وانما يأبى الا أن يسمى ديوانه « قلبى وغازلة الثوب الأزرق » فاذا سألناه عمن تكون غازلة الثوب الأزرق هذه أوضح لنا أنها بنلوبى الاغريقية التى أخذت تنسج ثوبا أزرق اللون فى انتظار عودة زوجها :

بنلوبى هل تنتظرين الغائب

أى حبيب فى شرفات الغيب

قلبى يبصر فى أشجار العين الخضراء دموع السحب
ينبش كل جبال الأرض
يجوع لزهرة حب
ياغازلة الثوب فؤادى يطلب ثوب
فاذا ما كنت تنتظرين الغائب أوديسوس
فأنا أيضا أنتظر الغائب (!!)

فاذا استعرضنا المنابع التى يستقى منها شاعرنا تجاربه ومواقفه سنجد أنها تنحصر فى أربعة منابع :

١ ـ المنبع الأول : قضية الحب

٢ ـ المنبع الثانى : الريف

٣ ـ المنبع الثالث : المدينة

٤ ـ المنبع الرابع : قضايا الحرية والنضال

وقد يكون فى هذا التقسيم ضرب من التعسف ففى بعض الأحيان نجد أن منبعين من المنابع الأربعة يلتقيان فى قصيدة واحدة بقصد ايجاد نوع من التكامل أو التقابل بينهما ، كان يربط الشاعر بين اخفاقه فى حبه وبين ضياعه فى المدينة أو يقابل بين عالم الريف وعالم المدينة ···

وهكذا ٠٠٠ قد يكون اذن فى هذا التقسيم ضرب من التعسف ، لكننا نلجأ اليه لكى تكون الحدود أمامنا واضحة الأبعاد ٠

ان شاعرنا الشاب يوفق كل التوفيق حين يترك ذاته الشفافة تعبر عن تجربته فى الحب دون أن يطمسها بحشد الثقافة فيها أو ابراز الموقف الاجتماعى فى تجربته دون أن تكون التجربة محتملة لمثل هذا الابراز ٠ ولأبو سنة قصائد ممتازة فى هذا المجال نذكر منها «المسافر وفيروزة البحار » و « ياقلبى » و « عندما نكون وحدنا » ٠

فى قصيدة « عندما نكون وحدنا » يعودالشاعر الى داره فارغ القلب من الحب ، فيشده فراغه هذا الى الرسائل القديمة التى كانت تصله من الأحبة لكى يخلق بذلك عالما وهميا جميلا يعيش فيه بعض الوقت هربا من قسوة الواقع وضغطه على روحه الشاعرة المرهفة :

اذا أدارت الورود وجهها عن اكتئابنا
وباعنا الذين فى قلوبنا
تنسل مثلما فراشة فى آخر الربيع
وحيدة تموت فى الورق
وعندما يجننا المساء
فنعبر الطريق نحو دارنا
وعند ما نكون وحدنا
فنسأم الحديث والأوراق واشتياقنا
ونطفىء السيجار فى بدايته
نودع الضيوف قبلما يفكرون فى فراقنا
وقد نمد هذه الأصابع المرنحة
الى كتاب
وقبل أن نتم صفحة ننساه فى مكانه
نعود لاغترابنا
يشدنا انكسارنا وضعفنا
الى الرسائل القديمة المكدسة
الى الرسائل البعيدة الأمد
لعلنا نجد
من كان يضمر الحنان ٠٠٠

ونحن نعتزر عن عدم ايرادنا للقصيدة كلها نظرا لضيق المجال وذلك لأن هذه القصيدة من القصائد الممتازة المتكاملة التى تتآزر فيها الصور وتتساند فيها جزئيات الواقع لترسم لوحة نفسية رائعة لتجربة الشاعر العاشق الرقيق ٠

أما المنبعان الثانى والثالث فهما منبعانمتقابلان متعارضان على طول الخط ٠ فالريف (المنبع الثانى) عالم لايعرف الكدر الا يتطاحن فيه البشر ٠٠ أنه عالم الصفاء والنقاء ٠٠ انه الواحة التى يتفيأ الشاعر ظلالها فى أوقات تبرمه بالمدينة والشاعر يضيق بالمدينة (المنبع الثالث) لأنها تمثل فى نظره غابة مخيفة يتصارع البشر فيها فيصرع الأقوياء منهم ضعفاءها ٠٠ انها تمثل عنده عالم الخطيئة والقهر والعسف ٠ ونحن نأمل أن تتغير نظرة شاعرنا هذه الى كل من هذين المنبعين ٠ فليس عالم الريف خيرا كله ، كما أن عالم المدينة ليس شرا كله ، وبالتالى فليس هناك مجال لاطلاق الأحكام العامة القاطعة على كل منهما ٠ وقد كنا نود ـ لولا ضيق المجال ـ أن نعقد مقارنة بين المدينة والريف من وجهة نظر شاعرنا كما يتمثل ذلك فى قصيدته « ريفية فى مدينة الغرباء » وفيها يتحدث عن فتاة ريفيةبريئة نزحت الى المدينة طلبا للرزق فكان أن وقعت فريسة انحلال أهلها (هكذا !!) كما كنا نود أن نعقد مقارنة بين هذه القصيدة وبين قصيدة بعنوان « دمعة بغى » تحكى نفس التجربة ، والقصيدة لشاعرنا الكبير محمد حسن اسماعيل وقد ضمنها ديوانه الأول « أغانى الكوخ »الصادر عام ١٩٣٥ وذلك لنرى مدى ما يمكن أن تحققه امكانيات كل من الشعر الحر والشعر العمودى فى تقديمها لتجربةواحدة وذلكعن طريق المقارنة بين هاتين القصيدتين ٠ ولنرى أيضا هل حدث تطور فى نظر شاعرنا الجديد الى هذا الموضوع عما هى عليه عند شاعرنا الكبير أم أن شيئا من هنا لم يحدث ؟!

أما المنبع الرابع الذى يستقى منه شاعرنا محمد ابراهيم أبو سنة تجاربه وأعنى به قضايا الحرية والنضال التى تتجلى فى قصائده « مرثية شهداء الجزائر » و « أغنية لفيدل » و « الذين يغنون لغيرك يا وطنى » فهو منبع فياض بالشعر الصادق المخلص لهذه القضايا اخلاصا مثاليا ٠

وقبل أن نختتم حديثنا هذا نتحدث عن الشكل الفنى فى شعر شاعرنا • ان ديوان « قلبى وغازلة الثوب الأزرق » يشتمل على ثمان وأربعين قصيدة أغلبها منظومة فى اطار الشعر الحر ، وان كانت بعض هذه القصائد الحرة قريبة جدا من الشكل العمودى للقصيدة العربية بحيث أننا يمكننا أن نجعل هذه القصائد عمودية لو أننا حذفنا تفعيلة هنا أو أضفنا تفعيلة هناك •

ولم يسلم شاعرنا من التأثر ببعض شعرائنا الجدد من السابقين له أمثال الشاعر العظيم بدر شاكر السياب أو الشاعرين المصريين صلاح عبد الصبور وكمال نشأت • لكن هذا التأثر تأثر طفيف بحيث يمكن أن يقال انه استيحاء وتفريع لبعض صور هؤلاء الشعراء •

والشاعر يستخدم فى بناء قصائده الرجز والمتدارك والمتقارب والرمل والكامل على النحو التالى :

١ ــ احدى وثلاثون قصيدة من تفعيلة الرجز « مستفعلن »

٢ ــ تسع قصائد من تفعيلة المتدارك «فاعلن »

٣ ــ أربع قصائد من تفعيلة المتقارب «فعولن»

٤ ــ ثلاث قصائد من تفعيلة الرمل « فاعلاتن»

٥ ــ قصيدة واحدة من تفعيلة الكامل «متفاعلن»

من هذا نجد أن ما يقرب من ثلثى الديوان مبنى على أساس تفعيلة « الرجز » وهذا أمر يبعث على الملل نتيجة رتابة الايقاع وتكراره بصورة ملحة ، ونحن على يقين من أن شاعرنا يمتلك أذنا موسيقية حساسة يستطيع أن يتخفف بها من وطأة هذا الرجز على شعره بل انه استطاع فعلا أن يحقق هذا فى قصائده التى قرأناها له بعد صدور ديوانه الأول هذا •

أما التقفية فلس لها نظام معين تسير عليه خلال قصائد الديوان،فقد نراها تضيق من حرية شاعرنا فى بعض القصائد كما فى قصيدتى «أبريل» و ترحمى عليه » • وقد يتحرر الشاعر منها نهائية • وأحيانا نجده ينسى أو يتناسى التناسق بين حركات الروى كما فى قوله :

فنسأم الحديث والأوراق واشتياقنا

ونطفىء السيجار فى بدايته

نودع الضيوف قبلما يودعون فى فراقنا

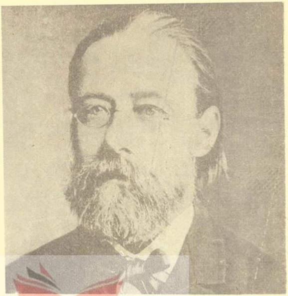
فنحن نجد أن حركة حرف الروى (القاف) فى السطر الثالث ، لكن شاعرنا يستعيض عن فى السطر الأول مفتوحة بينما نجدها مكسورة ذلك بحرف النون الممدود الذى يحقق ايقاعا موسيقيا قريبا من ايقاع القافية • لكننا نحس بنشاز فى الموسيقى حين ينسى الشاعر أو يتناسى مرة أخرى هذا التناسق لأن حرف الروى فى هذه المرة يجىء متبوعا بهاء صامتة تبرز اختلاف حركة الروى :

ومات تحت سرارة مخلفا وصيته

مكتوبة بدمعته

ومهما يكن من أمر فان ديوان « قلبى وغازلة الثوب الأزرق » يعد اضافة جديدة فى تراث شعرنا الحر ، نرجو أن تعقبها اضافات واضافات، ولقاؤنا معه سيكون فى القريب مع صدور ديوانه الثانى « حديقة الشتاء » •

حسن توفيق



تأليف
محمود أحمد الحفني

أعظم ما يمكن أن يقدمه الفنان لوطنه ، أن يعيد صياغة مشاعر هذا الوطن وآماله وأحزانه فى أعمال فنية. أن هذا التعبير عن مشاعر الجماهير وأحاسيسها بشكل فنى دليل انتماء الفنان الى قومه ومشاركتهم فى الكفاح من أجل الأفضل .

وقد شغلت هذه القضية حياة الموسيقار التشيكى العظيم فردريك سميتانا طوال حياته ومن أجلها ، وفى سبيلها لاقى الأمرين من عنت النقاد ، ومن انصراف الجماهير التى كان يعمل من أجلها ، ويتجه بفنه اليها .

والى جانب قضية « موسيقى قومية تشيكية » كان سميتانا يعمل من أجل تجديد الموسيقى ، من أجل أن يبعث فيها حرارة أكثر ومتعة أوفر ، وسموا وعمقا وتنوعا .

عرض ونقد
ممدوح عيسى

فردريك سميتانا

رائد الموسيقى التشيكية

الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة ٢١٣ صفحة - ١٧×٢٤سم

من أجل هذا ثار على القديم، وساعد سواء بموسيقاه أو بعزفه على فتح الباب لتيار واسع من التجديد ، لم يكتسح تشيكوسلوفاكيا موطنه فقط . ولكن اكتسح أوربا كلها ، وجعل فى الامكان ظهور موسيقار مثل جوزيف شتراوس .

لقد دان سميتانا بالرومانتيكية كمذهب فنى ، وثار على الكلاسيكية التى عاشت حتى ظهوره ، تحتمى بقصور الملوك والامراء ، حيث كانت الموسيقى من حق سكان القصور والقلاع

ان العبقرى الذى خرج من بين صفوف الشعب ، قرر منذ اللحظة الاولى التى أحس فيها سحر الفن العظيم يسرى فى عروقه ، قرر ان يهب موسيقاه للشعب ، وتخطى فى سبيل ذلك شخصيته الفردية الى عالم من الارستقراطيين والحكام . أوسع هو عالم القومية ، وفى سبيل ذلك جاهد فى التحرر من كل ما هو أجنبى عن وطنه ، وعاش فى جو بلاده متمثلا تاريخها فى أمجاد ماضيها وحاضرها ، وأمانى مستقبلها ، مترجما بفنه أحداثها وأساطيرها حتى لقد خلق سميتانا فن الاوبرا القومى فى وطنه . كما يقول الدكتور محمود أحمد الحفنى فى مؤلفه القيم عن الموسيقار الكبير .

فى الثامن من مارس سنة ١٨٢٤ وفى مدينة لايتوميشل الصغيرة فى شرق « بوهيميا » ولد فردريك فرانس سميتانا لأب يعمل فى صناعة الجعة . تزوج ثلاث مرات ورزق بعدد وافر من البنات وابن واحد هو فردريك الذى حمل هذا الاسم بعد أن زعمت أمه أن ملاكا طاف بها فى رؤيا وأمرها ان تطلق على ابنها هذا الاسم .

وقد كانت الأم باربارا لينك ، ابنة لحوذى فقير ، وهكذا ولد العبقرى فى جو العصامية والكفاح ، وكان عليه ن يرعى موهبته منذ طفولته الباكرة حتى كان مصيره داخل مستشفى الامراض العقلية بعد أن تغلبت عليه عوامل المرض والفقر والانكار فحطمت الجسد والروح معا ٠

وعلى يد معلم الكمان أنطون شميليك تلقى سميتانا أول أسرار الموسيقى فتفربتها روحه الظامئة الى هذا الفن السحرى ٠

ولم يتم سميتانا الخامسة حتى كانت له مقطوعة من موسيقى الفالس أخرجتها عبقريته المتوهجة ونالت استحسان معلمه ، وفى السادسة بدأ نجم الموسيقى الصغير يسطع، عندما أطل على الجمهور لأول مرة من مسرح قصر القيصر فرانس الثانى فى حفل أقيم بمناسبة تعميد القيصر ٠

وعزف سميتانا على الكمان ، فانتزع اعجاب الحاضرين ، ثم فاجأ المستمعين بمعجزة أخرى وهى عزفه على البيانو افتتاحية احدى أوبرات أوبير !

ولم يكن سميتانا يحب العزف على البيانو « ولكن والدى اقتادنى من أذنى وأرغمنى على تلقى الدرس الاول ٠ ووجد سميتانا فى هذه الآلة فيما بعد مجالا أوسع من الكمان للتعبير عن مشاعره ، وما زال يقبل عليها ، ويتعرف أسرارها حتى أصبح من أمهر العازفين عليها فى مستقبل أيامه ٠

وفى نفس العام ١٨٣٠ ، حمل الوالد طفله وأسرته عائدا الى مدينة « نيوشتات » وفى هذه المدينة التقى بأستاذين كان لهما أعمق الأثر فى صقل موهبته الموسيقية هما فرانس ايكافيك ، وجوهو فلاديكا ، وقد منحه الاول من علمه بأصول الموسيقى الكثير ومنحه الثانى أسرار اللغة الالمانية ما مكنه من أن يصبح فى المستقبل فى طليعة حملة الأقلام ، ولولا تفوق جانبه الموسيقى على الناحية الادبية فيه لكان صاحب مدرسة بين كتاب هذه اللغة وآدابها ٠

وبرغم أن سميتانا أجاد اللغة الالمانية وأصبحت طوع ريشته ، الا أنه فى مستقبل أيامه تالم كثيرا لانه لم يتعلم لغة قومه ـ التشيكية ـ وقد حاول كثيرا أن يجيدها دون جدوى ٠

وفى الثانية عشرة من عمره لم يستطع سميتانا أن يحصل الكثير على مقاعد الدرس فقد ظل يرسب فى امتحاناته مما أورث والديه الحسرة على مستقبله ، ولكنه فى نفس الوقت أصبح موسيقارا يبشر بمستقبل عظيم ٠

ولم يجد سميتانا فائدة من البقاء فى « نيوشتات » فظل يلح على والده ليسمح له بالذهاب الى العاصمة « براج » حيث المجال أفسح وأوسع أمام موهبته ، وفى سنة ١٨٣٩ ، استطاع ابن عمه جوزيف أن يلحقه بمدرسة « يونجمان » الثانوية فى براج ٠

وفى براج التقى بثلاثة طلاب يشبهونه طموحا وفنا ، وتعلقا بالموسيقى ، وسرعان ما تكون من الاربعة رباعى العزف فى المدرسة ٠

ومن نقودهم القليلة كانوا يشترون النوتات الموسيقية ويقول سميتانا : « كنا ندفع من حصيلتنا المشتركة ثمنا لتذكرة واحدة لى لدخول احدى الصالات أو الفنادق فى جزيرة صوفى حيث يعزف فيها ما يتجدد من المقطوعات الموسيقية ، وكان على أن استوعب تلك المعزوفات استيعابا كاملا ، ثم أدونها تدوينا دقيقا حيث يتولى بوتولا (وهو واحد من الرباعى) تنسيقها وتوزيعها »

وعندما علم والد سيمتانا بانصراف ولده عن العمل المدرسى الى الموسيقى صمم على اعادته الى البلدة وارغامه على العمل بالزراعة مدى حياته ، ولكن الصبى الموهوب يوفق مرة أخرى فى اقناع والده ، فيوافق الاب المحزون على الاكتفاء بنقله الى مدينة «بلزن» حيث يعيش تحت اشراف ابن عمه جوزيف ٠

وفى هذه المرة كان سميتانا عند حسن ظن والده ، فقد عمل بجانب تنمية موهبته الموسيقية على أن ينجح فى دراسته ، واستطاع فعلا أن يجتاز امتحان اتمام الدراسة الثانوية بنجاح ٠

وفى تلك الفترة وقع سميتانا فى الحب ، وكانت الفتاة التى استولت على قلبه هى « كتارينا كولار » التى تعرف اليها فى « نيوشتات » ثم جمعت بينهما الاقدار مرة أخرى فى مدينة « بلزن » ولعلها فرصة أن تتعرف على سميتانا الكاتب من خلال هذه السطور التى أثبتها فى مذكراته بتاريخ ١٩ يونيه ١٨٤٢ ٠

مالى أراك أيتها الصحائف فضولية، وكانك تسالينى من الذى شغل شغاف قلبى .. سأبوح لك بمكنون خواطرى، ولكننى سائق لنفسى بما تعودته منك حيث كنت على الدوام كاتمة أسرارى .. انها كاترينا ، نعم هى كيتى العازفة الماهرة التى قيدتنى بها فنها وحبها . هى اليوم فى قلبى وستبقى كذلك الى الابد » .

بولكا عثمان وغيرها

فى تلك الفترة المشرقة من حياة سميتانا ظهرت بواكير تأليفه الموسيقية .. وهو يسجل فى مذكراته عن هذه المؤلفات قائلا :

« اننى لا أحاول أن أشيد بمؤلفاتى الاولى ولعلى لا أجد غضاضة حين أعترف بأنها مؤلفات لا تعدو مواهب الاطفال ، وهى لا تعتمد على أساس من العمل ولا ترتكز على أصول مدعمة، لكنى أسجل فقط ما أتيح لى أن أتمه منها منذ كنت فى السادسة عشرة من عمرى .

١ ، ٢ ـ قطعتان من البولكا من نوع الرباعيات وقد أطلقت على المقطوعة الثانية اسم « بولكا عثمان » .

٣ ـ رباعية لاثنين من الفيولين والطورشيللو . وهى أول رباعية صنفتها ، وأعتقد انها غير ناضجة ويعوزها الكثير من الهارمونى وبعض نواحى الجمال .

٤ ـ أوفرتير على أسلوب موتسارت وقد قوبلت وقت ظهورها بالاستحسان من الجميع .

يمضى سميتانا فى تعداد مؤلفاته ، محللا ، شارحا ، ناقدا .

ويشد رحاله مرة أخرى الى براج « كقبلة » لكل من يعمل فى الفن . ولأن كاترينا كانت الثقافة تتواصل دراستها الموسيقية .

وصل سميتانا الى براج لا يحمل الا قروشا قليلة ، بقيت من الجنيهين اللذين غادر بهما منزل أسرته، وكانت براج فى ذلك الحين واقعة تحت تأثير موتسارت فى مؤلفاته وفى أسلوبه ، وفى منهجه ، ولقد مضى موتسارت منذ بداية القرن المنصرم ولكنه بقى يحتل الجانب الأعظم فى براج ، وأخذت موسيقاه مأخذ العقيدة التى لا يسمح بسواها فى عاصمة بوهيميا الكبرى .

وصل سميتانا الى براج، ومر بظروف قاسية ، حتى اكتشف « كيتل » مدير الكونسرفتوار فى براج مواهب الشاب الموسيقية فقدمه الى أسرة الجراف ليوبولد تون هوهنشتاين ليقوم بمهمة تدريس الموسيقى لتلك الاسرة النبيلة .. التى قضى فى رحابها ٤ سنوات كانت من أجمل سنوات حياته ، كتب خلالها مجموعة موسيقية ممتازة خلد فيها حبه وحبيبته ونفسه وأطلق عليها اسم « مقطوعات صغيرة وارتجالات »

أتاحت اقامة سميتانا فى براج له فرصة التعرف والاتصال ، ليس فقط بالاعلام من أبناء وطنه ، بل بالعباقرة من زوار براج على اختلاف أشكالهم، وفى مقدمة من تعرف اليهم من مشاهير الفن روبرت شومان وزوجه الموسيقية المتألقة كلارا .

احس سميتانا أن بقاءه فى مقر آل هوهنشتاين قد استنفد أغراضه . وان عليه أن يخرج الى العالم بموسيقاه ابتغاء شهرة أوسع ، ومال أوفر ليتمكن من الزواج بمن يحب .

وسرعان ما قدم استقالته لأهل القصر ـ بعد أن أوصى بالوظيفة لكاترينا خطيبته وقرر أن يقيم بعض الحفلات الموسيقية فى المدن الهامة، مثل «بلزن» وأيجر ومارينبا وفراتسباد .. وكارلسباد .

وفعلا بدأ طوافه المأمول بمدينتى بلزن وايجر ، ولكن قلة الايراد فى الحفلات التى أقامها حملته على أن يقطع رحلته ويعود أدراجه الى براج فى أغسطس ١٨٤٧ بعد أن يئس من تحقيق ما كان يأمله .

ليست يتدخل لانقاذه

كانت استقالة سميتانا ورحلته الفاشلة درسا قاسيا فقد عاد الى براج ليجد نفسه بلا عون من أى انسان حتى والده ، وأحس سميتانا انه غريب فى وطنه ، غريب بموسيقاه وأشجانه ووحدته ، ودفعه كل ذلك الى التفكير جديا فى الانتحار والتخلص من عذاب الفشل الدائم ، والحب الذى لايستطيع أن يصل به الى البيت السعيد .

شىء واحد أو أمل واحد أبقى على حياة سميتانا ، فقد كان دواما يفكر فى انشاء مدرسة للموسيقى ، يغرس فى تلاميذها مبادئه الموسيقية ، وينقذه ايرادها من الافلاس والفاقة .

وكان أمامه عقبتان ، أن يحصل على تصريح من الجهات المسئولة وأن يوفر المبلغ الكافى لاستئجار مكان مناسب وشراء بعض الآلات الموسيقية ٠

وكانت العقبة الثانية ــ المال ــ هى العقبة الخطرة ، وظل سميتانا يفكر فى وسيلة يحصل بها على المبلغ المطلوب وهداه تفكيره الى الشخص الوحيد الذى يمكن أن يعاونه وهو الموسيقار الشهير فرانس ليست ٠

وكان سميتانا قد التقى بليست عام ١٨٤٠ فى براج ، فسحرته موسيقى الموسيقار مثله الاعلى ، والمنار الذى ينهج سبيله ٠

وحل الفقر عقدة لسان سميتانا ، وأخرجه من خجله ، فسطر مجموعة من المؤلفات بعنوان « المقطوعات الست المميزة » وأرسلها الى ليست طالبا منه العون !

وتضمنت رسالته الى الموسيقار الشهير مقدمة تعبر عن اعجابه به ، وشرحا للظروف التى مرت به منذ طفولته الى شبابه ، والظروف التى يعيش فيها ، ثم يقول : « ان ظروفى لا تمكننى من كسب ما يزيد على اثنى عشر جولدن (جنيه واحد) فى الشهر وهو مبلغ لا يكفى الا لطرد شبح الموت جوعا عن حياتى ، وليس فى مقدورى أن أقوم بطبع مؤلفاتى الموسيقية لأنها تتطلب من النفقات ما لا قبل لى باحتماله ٠

وبعد سطور أخرى طافحة بالالم والعذاب يقول سميتانا فى رسالته : « فاسمح لى أيها السيد الكريم ان أقدم نفسى اليك عن طريق مؤلفاتى الموسيقية ، وهى سلسلة من المقطوعات المميزة آملا أن أصل عن طريقها الى الرأى العام باعتبارها انتاجى الاول ، وهأنذا أعتمد على فضلك ، راجيا بعد التنازل بقبولها أن تيسر أمر طبعها ، ولا شك عندى فى أن اقترانها باسمك سيكون أكبر ضمان لاقبال الجمهور عليها وسيكون اسمك المحبوب مصدر سعادتى فى المستقبل ، مع دوام شكرى الى الابد » ٠

ثم يضيف سميتانا حاشية طويلة يلخص فيها رغبته فى انشاء المدرسة الموسيقية ويقول لهذا : « فانى وأنا آسف اذ أعرض نفسى للسقوط فى نظرك أتقدم اليك ملتمسا اقراضى مبلغ اربعمائة جولدن (٣٥ جنيها) وسأقوم برده اليك عند الميسرة مع بقائى مدينا لك بهذا الفضل ماحييت٠

وقد رد عليه ليست برسالة مختصرة قال فيها عن المقطوعات الموسيقية : « انها فى الحقيقة تعد فى دقة صياغتها أروع وأجمل المقطوعات الممتازة التى وقع عليها نظرى فى العهد الاخير غير انى أسمح لنفسى أن أتقدم اليك بنقد واحد فيما يختص بالمقطوعة الاولى جريتا الصغيرة فى الغابة » ، بين قالب « الكانون » فى مستوى فنى رفيع غير متناسب مع جريتا الصغيرة ، ولعل الاجدر بالعنوان أن يكون « فى الغابة » ٠

ثم وعده ليست بأن يبلغه أنباء سارة عند طبع مؤلفاته ووعده بزيارة قريبة ، ولم يشر الى القرض المطلوب من قريب أو بعيد !

رياح الثورة

شهدت أوربا فى تلك الفترة من تاريخها ــ خاصة حول عام ١٨٤٨ ــ تفجر الثورات الشعبية فى أماكن متفرقة منها ، فقد انتقلت عدوى الثورة الفرنسية الى ما حولها ٠ وبالنسبة لتشيكوسلوفاكيا ، فقد انعقد فى براج فى يونية من ذلك العالم مؤتمر سلافى جعل وجهته المطالبة باتحاد الدول الواقعة على نهر الدانوب ، وقد دفعت هذه المطالب بسميتانا الى تيار السياسة ٠٠ وسرعان ما أصبح عضوا فى الحرس الوطنى ، وتفاعل مع الثائرين من بنى قومه ، ففاض الهامه بالكثير من المؤلفات الموسيقية الوطنية منها ٠٠٠ « مارش الحرس الاحمر » ٠ و «نشيد الحرية » ٠

واستطاع الفنان أن يسهم بجهوده فى الثورة التى وضعت الحدود الفاصلة بين ما هو المانى وما هو تشيكى ، ومنذ ذلك الحين استجاب الفنان لشعوره القومى ، فأقام نفسه باعثا فنيا لنشر التجاوب الوطنى فى قلوب الشعب ٠

الزواج والإنتاج

أخيرا تحقق لسميتانا حلمان غاليان ٠٠ الاول هو افتتاح المدرسة الموسيقية التى تمثل مورد رزقه ، أما الثانى فهو زواجه من حبيبته كاترينا كولار فى أغسطس ١٨٤٩ ٠ بل ان شيئا أهم من كل هذا تحقق ، وهو طبع أول مجموعة موسيقية له ، بعد أن

أوصى ليست به فرانز كيستنر الناشر بمدينة ليبزج •

وقد نشر له كيستنر المجموعة الاولى •• ثم نشر أحدث ما كتب سميتانا للبيانو فى مجلدين تحت رقم « الانتاج الثانى » وهى تكون مقطوعاته القصيرة التى احتذى فيها حذو شومان •

وقد أهدى سميتانا من هذه المجموعة نسخا الى مشـــاهير الفنانين ليتلقى أحكامهم عليها •

ولكن فرحة سميتانا لكل هذا لم تدم طويلا فسرعان مابدأ سيل من الاحزان والنكبات يحل به ، فعندما أقيمت مهرجانات زفاف القيصر جوزيف الاول بالاميرة اليزابيث الالمانيـة فى أبريل ١٨٥٤ ، انتهز سميتانا الفرصة ليعبر بفنه عما يخالجه من سرور ، فألف سيمفونيـة النصر ، وجعل الفـكرة الاساسية لحن السلام القيصرى لهايدن. وتعد هذه السيمفونية وبخاصة قسم « ســكرتسو » منها خير ما أبدع سميتانا •

وقد وسط سميتانا أحد النبلاء ليقدمها الى كبير الياوران ومعها رسالة طافحة بالامل من الموسيقار ، ورسالة توصية من النبيل •

ولكن الرسالتين والسيمفونية معا قوبلوا بالرفض ، ولم يجد الاستعطاف من المؤلف ولا الشفاعة من النبيل •

وأمام هذا الاعراض ألقى سميتانا بالسمفونية فى زوايا النسيان ، ولم يعد اليها مرة أخرى الا فى عام ١٨٨٢ •• وكتب فى مذكراته يبدى اعجابه بها •

ولم يفق سميتانا من هذه الصدمة الا ليلقى صدمات أخرى فقد اختطف الموت ابنته الاولى والثانية والرابعة ، ولم يبق له من زيجته الا ابنة واحدة واكتمل عقد المصائب بوفاة والده عام ١٨٥٤ بعد أن أصابه الافلاس ، ولحقت به أم الفنان بعـد ذلك بنحو عشر سنوات •



وفى وسط هذه العاصفة من الاحزان، أبدع الموسيقار مقطوعته الخالدة «ثلاثية صول الصغير » التى قال عنها ليست : **« ان هذا التصنيف يعد فى طليعة ما أبدع سميتانا وليس فى مقدور غير العبقرى أن يصنع مثله » •**

وفى تلك الفترة الرهيبة من حياة الفنان لم يخف عنه الا زيارات ليست المتابعة له ، حيث كانا يجلسان معا يعزف كل منهما ما أبدعت عبقريته من ألحان •

الهجرة والتجديد

لم يعد المقام يطيب للفنان فى براج بعد كل مالاقاه من اعراض الناس ، وقسوة القدر وهكذا شد الرحال فى عام ١٨٥٦ الى مدينـة « جوتابرج » ثانى مدن السويد أهمية حيث تسلم منصب رئاسة جمعية الفيلهارمونى بها•

ومن عام ١٨٥٦ الى عام ١٨٦١ عاش سميتانا فى جوتابورج رئيسـا لتلك الجمعية حيث وجد فى المدينة وطنا ، وفى سكانها أسرة •

وقد أهلتـه مهارته كموسـيقى وبراعته كعازف وقدرته على التعليم ، أهلته لشق طريقه داخل المجتمع الذى تلقاه بكل ترحيب •

وقد استطاع برئاسته لتلك الجمعية أن يقوم بثورة ضد المدرسة القديمة ، فاسمع أهل جوتابورج أعمال هايدن وموتسارت وهيندل ومندلسون وغيرهم •• وكان يغمر قلبه ايمان عميق بأنه يؤدى رسـالة الفن والتربية ، كمـا استقبلته الصحافة بالترحاب والتقدير

وقد دفعـه ما لاقى من نجاح الى احضار أسرته لتقيم معه فى جوتابورج بعد أن قضى الصيف زائرا ، حيث التقى بليست فى فايمار مستمتعا بمهرجانين فنيين أقيما هناك أثناء زيارته •

وقد تأثر سميتانا كثيرا بما سمعه فى فايمار من ألوان الموسيقى ، وهكذا لم يعد الى جوتابورج عام ١٨٥٧ الا وقد بدأ مرحـلة جديدة من التاليف الموسيقى •

اخذ سميتانا يحطم القـاعدة التى كانت تلتزمها السيمفونيات القديمـة من ضرورة بنائها على اربع حركات •

ورأى ألا يخضعها فى التركيب لغير مقتضيات التاليف الموسيقى ومستلزمات التعبير الذى يهدف اليـه ، فالمعانى الموسيقية هى التى يصح لها أن تتحكم فى القالب ، وليس القالب هو الذى يتحكم فى المعانى •

وتعتبر فترة اقامة سميتانا الثانيـة فى مدينة جوتا بورج من أخصب فتراته فى التاليف فقد وضع خلالها الموسيقى الوصفية التى عبر بها عن مسرحيـة «ريتشارد الثالث لشكسبير» ومسرحية شيللر « معسكر فالنشتاين » و «موت

فالنشتاين » كما وضع موسيقى راقصة للبيانو وبعض الاغانى .

ولكن هذه الفترة الخصبة لم تستمر طويلا ، فقد مرضت زوجته كاترينا ، ولم تتحمل صحتها الضعيفة جو السويد البارد ، وهكذا اضطر الفنان الى مغادرة جوتابورج ، حيث أحيى آخر حفلاته فى ١٧ مارس ١٨٥٩ ، كما امتحن طلبة وطالبات معهده ، وشد الرحال عائدا الى وطنه .

ولكن القدر لم يرحم كاترينا ولم يرحمه ، وقد ماتت كاترينا فى الطريق قبل أن ترى أرض وطنها الحبيب ، وافتها منيتها فى مدينة درسدن ، وأبى وفاء سميتانا الا أن يعود بها حيث دفنت فى الارض التى ولدت بها .

وحاول سميتانا على اثر هذه المحنة أن يلتمس العذاب فى تنظيم سلسلة من الرحلات الى البلاد الالمانية وبوهيميا وفى احدى هذه الرحلات قابل باربارا فرانس فوقع فى حبها وسرعان ما تزوجها فى يولية ١٨٦٠ ، وقد ظلت باربارا مخلصة للفنان حتى آخر أيام حياته .

وبعد عدة رحلات ، شد الزوجان الرحال الى مدينة جوتابورج ، وقد كان سميتانا شديد الالم لفراق وطنه فسجل فى يومياته : « **انه لمن المحزن جدا أن أكون مضطرا الى مغادرة وطنى الذى أدين له بالحب فى أعماق نفسى ، والذى كنت أتمنى ألا يقصينى عنه غربة أو تصرفنى عنه رحلة فى سبيل كسب العيش الى بلد أجنبى . ولكنى آمل أن تكون غربتى هذه المرة غير طويلة الامد** » .

وفى جوتابورج رأى سميتانا أن يرد بعض جميل المدينة المضيافة ، فاختار « هاكون يارل » لتكون مادة لقصيدة السيمفونى ، وهى مسرحية نالت من الشعوب الشمالية شهرة داوية .

ومرة أخرى يعاوده الحنين الى وطنه فيغادر جوتابورج بعد أن أكمل السميفونية وتلقى تقدير الشعب عليها .

وفى ١٩ مايو ١٨٦١ يودع سميتانا جوتابورج للمرة الرابعة عائدا الى براج .

آمال وآلام

عاد سميتانا الى براج ، وقد نالت كثيرا من الحقوق ، فاصبح لبوهيميا مجلسا نيابيا وبدأت لغة الوطن تستخدم فى الحفلات المسرحية ، وشملت أوصال البلاد نهضة قومية عارمة .

وظل سميتانا الذى عاش حياته كلها عاملا على بعث فن وطنى تشيكى ، عاد الى براج آملا أن يجد مكانا فيها ، ولكن كم كانت خيبة أمله ان وجد الابواب كلها موصدة فى وجهه .

ولم يمض وقت طويل حتى استنفد مدخراته ، واضطر للطواف بالمدن مرة أخرى فى سبيل كسب رزقه ، ولكن الصدمات تتالت على الفنان ، فان الرحلات التى قام بها لم تعد عليه بغير الخسارة . وعاد الى براج مرة أخرى .

فأقام بها حفلا موسيقيا خسر فيه ٢٠٨ جولدن (نحو سبعة عشر جنيها)

وهكذا لم يمض أكثر من عام عندما وجد سميتانا نفسه عائدا الى جوتابورج المدينة التى أحبته دائما وفتحت له ذراعيها .

ونجحت الحفلات التى أقامها فى جوتابورج وامتدحته الصحافة وأقبل عليه المستمعون ولكنه فى تلك الرحلة بدأ يحس بعوارض المرض الذى أصاب أذنيه وأوصاله الى الصمم الكامل بعد ذلك بعشر سنوات .. تماما مثلما حدث للعبقرى الخالد بيتهوفن .

وعاد سميتانا الى براج مرة أخرى حيث افتتح مدرسته الموسيقية وبدأ يشعر بالاستقرار المادى ويجد وقتا أطول للانتاج الموسيقى .

وانضم الفنان الى جمعية الغناء (هلا هول) وجمعية الفنانين (أوملكا بيسيدا) وظل عضوا بهما طوال حياته ، وبذل فيهما غاية جهده لا لاحياء اللغة التشيكية فى تلك الفنون فحسب .. بل لتكون هذه الفنون مجالا للتعبير عن الروح القومية التشيكية بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى . وكان من مزايا اتصاله بهذه الجمعيات أن عنى فى نشاط ملحوظ بتاليف الكثير من مقطوعات الكورال التى رسمت الطريق الواضح للانتاج القومى فى هذا النوع ومما كان سببا مباشرا فى الاتجاه به الى تاليف أوبراه الاولى « البراندنبورجيون فى بوهيميا » ومن

ناحية أخرى فان هذا الاتصال مكنه من تنفيذ مشروعه الفنى الذى كان يتوق الى تحقيقه منذ عودته الى وطنه وهو اقامة حفلات كونسرت لمشتركين ثابتين • وقد اقترح على جمعية الفنانين اقرار هذا النظام كما دعى اليه بكتابة المقالات فى الصحف خاصة بعد أن عمل محررا للقسم الفنى بالجريدة الوطنية أكبر صحف براج ذيوعا وانتشارا •• وقد أظهر بجلاء فى كتاباته ان المثل الاعلى الذى ينشده للمسرح القومى هو خلق الاوبرا التشيكية •

لقد كان سميتانا يحس فى أعماق نفسه انه زعيم فنى وان من واجبه نحو واطنيه أن يرسم لهم فى انتاجه لموسيقى الطريق السوى الذى ينبغى أن يسير فيه الفن القومى لبلاده سواء كان ذلك فى التأليف الموسيقى البحت أم فى فن الاوبرا •

وقد تأثر سميتانا بفاجنر ، وكان يرى فى موسيقاه اتجاها رفيعا ينبغى أن يكون غاية الاوبرا وهدفها •

وعلى هدى من هذه المشاعر وضع سميتانا أوبرا « البراندنبورجيون » فى بوهيميا فجاءت تعبيرا صادقا عن الموسيقى التشيكية ، واستحق عليها الجائزة الاولى فى مسابقة يوهان مراخ وقيمتها ٦٠٠ جولدن (٤٥ جنيها) •

وتتالت بعد ذلك اوبرات سميتانا وكان أكثرها نجاحا أوبرا « الخطيبة المبيعة » التى تقبل الشعب موسيقاها المرحة تقبلا وجدانيا وعاطفيا حارا فقد جمعت بين براءة موسيقى موتسارت فى روحها الصافية ، وبين ثراء اللحن الايطالى ونبالة الاوبرا كوميك الفرنسية وشاعرية الرومانتيكية الالمانية والمهارة فى استخدام الآلات فى أسلوب امتازت به مدرسة ليست •

لقد سقطت هذه الاوبرا الممتازة فى أول عرض لها عام ١٨٦٦ ، ولكنها بعد ذلك حققت نجاحا ساحقا •

أخيرًا

وأخيرا تحقق لسميتانا مرتب وافر ونفوذ أدبى ضخم ، عندما أسند اليه منصب الرياسة الموسيقية فى مسرح انتريمس ، فبدأ عمله الاصلاحى بفتح أبواب المسارح لموسيقى بيتهوفن ، ولانتاج الفنانين الشبان من أبناء تشيكوسلوفاكيا سواء أكان انتاجهم من الموسيقى البحتة أو المسرحية •

وتتالت بعد ذلك أوبرات سميتانا •• أوبرا داليبور •• أوبرا ليبوسا • الارملتان •• سمفونية وطنى •• أوبرا القبلة •• رباعية من حياتى •• أوبرا السر •• أوبرا حائط العفريت •• رباعية مقام رى الصغير •

ولكن شمس حياة الفنان كانت تميل الى الغروب •• وقد أصابه الصمم الكامل •• ولم يعد يسمع شيئا مطلقا • وقد وضع موسيقى ٤ أوبرات من انتاجه وهو لايسمع شيئا على الاطلاق •

وفى عام ١٨٨٠ أقيم حفل تكريم له بمناسبة مرور ٥٠ عاما أول ظهوره فى طفولته عازفا فى حفل عام ، وفى أكتوبر عام ١٨٨١ ظهر لآخر مرة فى مدينة بسيك فى جنوب بوهيميا عازفا على البيانو ، ثم اختيرت أوبرا ليبوسا ليفتتح بها المسرح القومى وبحضور ولى العهد هذا الحفل الكبير ، وجلس سميتانا يرى موسيقاه وهى تعزف دون أن يسمع منها شيئا حتى تهنئة ولى العهد لم يسمعها •

وفى فبراير ١٨٨٤ زادت حالته الصحية سوءا ، وفى الثانى من مارس وهو يوم بلوغه الستين كان غائبا عن الوعى وفى عشرين أبريل أدخل مستشفى الامراض العقلية فى براج بعد اصابته نوبة هياج عنيف ، وظل فى غيبوبة حتى وافته منيته فى ١٢ مايو من نفس العام •

حياة عاصفة لفنان أحب وطنه ، فوهبه عبقريته ، وفتح أمامه الطريق للاستقلال الفنى ، وأصبح يستحق عن جدارة لقب « رائد الموسيقى التشيكية »

ممدوح عيسى

أخبار الكتاب العربي في العالم

يقدمه مدير التحرير

● أشرت فى هذا الباب من العدد الخامس والعشرين الصادر فى شهر يونيه سنة ١٩٦٦ الى المشروع الذى عقدت « **دار الكاتب العربى للطباعة** والنشر » العزم على تنفيذه ، وهى اعادة نشر « المكتبة الأندلسية » على أن تضم مجموعة من الكتب التى يعد نشرها تكملة ضرورية للمكتبة الأندلسية ، لتضع أمام ملايين القراء من المثقفين والعلماء فى جميع أنحاء العالم عامة ، وفى ربوع الوطن العربى خاصة هذه المجموعة من الكتب ليطلعوا على الدور الهام الذى أسهم به العرب فى اثراء الحضارة الانسانية وما كان لهم من السبق فى نشر العلم وحمل لواء الحضارة ، فقد كانت اقامة العرب الطويلة فى الأندلس تمثل عملية التفاعل الحضارى بين الشرق والغرب وبين العصر الوسيط والعصر الحديث ، وهذا التفاعل هو الذى تكونت منه بذور الحضارة الحديثة .

ولم تمض على هذه الاشارة أشهر قليلة حتى تم طبع خمسة مجلدات من هذه المكتبة تضم أربعة كتب هى :

أولا : كتاب « **قضاة قرطبة** » الذى ألفه أبو **عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشنى القيروانى** المتوفى سنة ٣٦١ هـ . وقد كانت قرطبة قاعدة الأندلس ، ولم تكن أهميتها تقل عن أهمية بغداد ودمشق والقاهرة ، نبغ فيها علماء فى مختلف فروع المعرفة ، وهذا الكتاب استخلص مؤلفه مادته من طبقات الشعب المتعددة ابتداء من الطبقات الحاكمة حتى الطبقات الشعبية الدنيا ، واعتمد على ماكان تحت يده من خطابات تبودلت بين الحكام والقضاة ، ورجع الى وثائق خاصة كانت محفوظة لدى بعض الأسر .

وكان المستشرق جوليان ريبيرا Julian Ribera قد نشر هذا الكتاب فى مدريد عام ١٩١٤ مع ترجمة له باللغة الاسبانية .

ثانيا : كتاب « **تاريخ علماء الأندلس** » الذى ألفه **ابن الفرضى أبو الوليد عبد الله محمد بن** يوسف الأزدى القرطبى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ . وقد نحا فيه مؤلفه نحو الترجمة المختصرة لفقهاء الأندلس وعلمائهم ورواتهم ، بحيث اقتصر على ذكر الميلاد والوفاة والسماع والرواية وما يتصل بها ، ورتبه على حروف المعجم . وقصر جهده على علماء الفقه ورواة الحديث من الأندلسيين الذين عاشوا فى الأندلس أو رحلوا عنها ، والذين استوطنوها وكانت لهم آثار بين الناس ، ولم يتجه الى غير هؤلاء ، وان لم يمنعه هذا من الترجمة لبعض الأدباء والشعراء وذكر بعض أشعارهم لأن شهرتهم لم تكن فى الأدب والشعر بقدر ما كانت فى الفقه ورواية الحديث والمشاركة فى القضاء وحلقات العلم الدينى .

وقد عنى فى الطبعة الجديدة بمحاولة تقويم

الغموض الذى شاب الطبعة الاوروبية فى بعض الاحيان ، وذلك بما يتفق والسياق ·

وبلغ عدد التراجم ١٦٥١ ترجمة ·

***

ثالثا : كتاب « **جذورة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس** » الذى ألفه الحميدى أبو عبدالله محمد ابن أبى نصر فتوح بن عبدالله الأزدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ · ولم يخرج الحميدى فى هذا الكتاب عن الخط الواضح الذى تسير عليه المكتبة الأندلسية وهو تراجم رجال الفقه والحديث والأدب ، وبدأه بمقدمة تاريخية ليضع أمام القارىء التطورات السياسية التى عاش فيها هؤلاء العلماء ، وتتبع الحكام منذ فتح الأندلس طارق بن زياد حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ثم أخذ يترجم للعلماء فيذكر اسم العالم وقد يتتبعه حتى الجد العاشر ثم يذكر كنيته ونسبته وبلده وشيوخه ونشاطه ورحلاته الى المشرق وغيره ومؤلفاته ، ثم يعرض نماذج من شعره ومطارحاته وقد يورد بعض القصص والروايات ·

وقد ضم هذا الكتاب من التراجم ٩٨٧ ترجمة

***

رابعا : كتاب « **الصلة** » ـ وهو مجلدان ـ الذى ألفه ابن بشكوال ـ بفتح الباء وسكون الشين وضم الكاف ـ واسمه أبو القاسم خلف ابن عبدالملك ، المتوفى سنة ٥٧٨ هـ · وقد ذكر فى مقدمة كتابه أن أصحابه سألوه أن يصل لهم كتاب ابن الفرضى عن علماء الأندلس من حيث انتهى كتابه الى العصر الذى يعيش فيه ابن بشكوال ، فسارع الى ما سألوا ، وابتدأ من حيث انتهى ابن الفرضى ، ورتبه مثل كتابه على حروف المعجم وعلى رسمه وطريقته ، وسماه من أجل ذلك « الصلة » حتى جاء بعده ابن الأبار المتوفى سنة ٦٥٩ فوضع كتابه « **التكملة لكتاب الصلة** » وابن الزبير المتوفى سنة ٧٠٨ هـ ووضع كتاب « صلة الصلة » ·

وكتابا « **علماء الأندلس** » و « **الصلة** » سبق أن نشرهما فى « مجريط » (مدريد) بأسبانيا المستشرق فرانشسكو كوديرا F. Codera · فطبع كتاب « علماء الأندلس » فى مجلدين من سنة ١٨٩١ ــ ١٨٩٢ ، وكتاب « الصلة » سنة ١٨٨٣ ونشرا فى سلسلة « المكتبة الأندلسية » التى ضمت ستة كتب منها : هذان الكتابان ثم « التكملة لكتاب الصلة » لابن الأبار ، « المعجم فى أصحاب الامام الصدفى » لابن الأبار أيضا ، وبغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس للضبى ، و « فهرس ابن خير » لأبى بكر محمد ابن خير ·

وطبع السيد عزت العطار فى مصر تاريخ العلماء لابن الفرضى ، والتكملة لكتاب الصلة وأضاف اليها كتاب « جذوة المقتبس » و « قضاة قرطبة » اللذين أشرنا اليهما ·

● ويقوم الآن الدكتور عبد العزيز الدورى مدير جامعة بغداد والدكتور عبد الجبار المطلبى المستشار الثقافى بسفارة الجمهورية العراقية بالقاهرة بتحقيق كتاب عن الدولة العباسية وضعه مؤلف مجهول ، ولكن الكتاب على جانب كبير من الأهمية فى التاريخ الاسلامى ، اذ يضيف أخبارا جديدة استقاها المؤلف من الوثائق التى تمدنا بمعلومات هامة ومسهبة عن الحركات السرية التى سبقت قيام الدولة العباسية والدعوة اليها، وعن زحف الجيش الخراسانى بعد اشهار الدعوة ودخوله الى الكوفة ، وانتهاء الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ ، على يد عبد الرحمن بن مسلم وفرار مروان بن محمد آخر ملوك تلك الدولة ·



● أشرت فى العدد الذى صدر من هذه المجلة فى الشهر الماضى الى السلاسل السبع التى تقوم

« وزارة الثقافة والارشاد » فى القطر الشقيق « العراق » باصدارها . ونشير هنا الى أن هذه الوزارة كانت قد أعلنت عن عزمها على اصدار سلسلة جديدة هى « القصة والمسرحية » .

وقد اختارت للنشر فى هذه السلسلة قصتين طويلتين هما : « **الظامئون** » لعبد الرازق المطلبى و « **الهارب** » لشاكر جابر ، ومسرحيتين هما : « **عمان لن تموت** » للسيد عبد الوهاب النعيمى و « **خارج من الجحيم** » لصادق راجى .. ثم خمس مجموعات قصصية هى : « **من مناهل الحياة** » لالياس قنصل ، و « **رماد الليل** » لعامر رشيد السامرائى ، و « **عندما تكون الحياة رخيصة** » لادمون صبرى ، و « الرحيل » لخضير عبد الأمير ، و « **من أجل الآخرين** » لأحمد عبدالكريم .

وستشرع الوزارة فى طبع هذه الكتب خلال عامين .

***

● أما فى الشقيقة « **سورية** » فان نشاط « مديرية التراث القديم » فى « وزارة الثقافة والارشاد القومى » هناك موضع اعجاب وتقدير فهى آخذة بهمة مديرها الأستاذ عبد المعين الملوحى فى دفع عجلة النشر دفعة قوية . وقد أشرنا فى العددين السابقين من هذه المجلة الى بعض الجهود التى بذلتها فى سبيل احياء طائفة من ذخائر التراث العربى بعد تحقيقه تحقيقا علميا جديرا بالتقدير .

ونشير هنا الى جهود أخرى لهذه المديرية :

***

أولا ــ قدمت الى المطبعة كتاب « **المنصفات** » من أشعار العرب التى جمعتها هذه المديرية وقامت بشرحها .

و « **المنصفات** » هى القصائد التى أنصف قائلوها فيها أعداءهم، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حر اللقاء ، وفيما وصفوه من أحوالهم من امحاض الاخاء . ويروى أن أول من أنصف فى شعره مهلهل بن ربيعة . ومن أصحاب « المنصفات » المفضل بن معشر النكرى وخداش ابن زهير والفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب . وفى حماسة البحترى باب خص به ماقيل فى الانصاف فى الحرب .

***

ثانيا ــ أتمت هذه المديرية تحقيق كتابين لمحمد بن لاجين بن عبد الله الحسامى الطرابلسى المتوفى حوالى عام ٧٨٠ هـ (١٣٧٩ م) ويعرف بالرماح ، وكان من أهل طرابلس الشام وأحد العارفين بفنون الفروسية .

وهذان الكتابان هما : « **تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين** » و « **فى علم الفروسية** » .

وتذكر هنا أن بعض المصادر تنسب الكتابين الى أبيه حسام الدين لاجين بن عبدالله الذهبى الطرابلسى الذى توفى عام ٧٣٨ هـ (١٣٣٨ م) . وتسمى كتاب محمد ابنه « بغية القاصدين فى العمل بالميادين » وهو فى الفروسية ألفه لصاحب حلب .

***

● من بين ما احتوى عليه الجزء التاسع عشر من « مجلة مجمع اللغة العربية » من مواد لها قيمة لغوية وأدبية وعلمية : « المعجم الفلسفى » الذى قال الاستاذ الدكتور ابراهيم مدكور الأمين العام للمجمع فى تقديمه له انه نواة لمعجم فلسفى عربى ، أخذ فيه بترتيب حروف الهجاء اللاتينية

حصرا للمصطلحات الفلسفية القديمة والحديثة حتى اذا ما حصرت واستقرت أمكن تبويبها على حسب حروف الهجاء العربية ، وقد عول فيه على أحدث المعجمات الاوربية وأخصها « مفردات الفلسفة » للالند ، وعنى فيه خاصة بالمنطق وعلم الجمال والأخلاق والاجتماع الميتافيزيقا ، ولم يعرض الا لقدر من مصطلحات علم النفس ، ولم يغفل بعض مصطلحات العلوم الرياضية والطبيعية لما لها من صلة وثيقة بالدراسات الفلسفية . وأخذ فيه بمبدأين أساسيين : **أولهما** احياء المصطلح القديم ما أمكن الا ان طغى عليه استعمال حديث أو أصبح لايلائم المدلول الفلسفي المعاصر . **وثانيهما** تسجيل ما استقر من المصطلحات الفلسفية العربية الجديدة فى الخمسين سنة الأخيرة ما لم يحل دون الأخذ بها حائل قوى .

وذلك الى جانب قسم كبير من المجلة بلغ مائة وثلاثين صفحة ضمت ما أقره المجمع فى دورته التاسعة والعشرين من مصطلحات فى الكيمياء والصيدلة ، الطب الشرعى ، علم الضوء ، علم الجيولوجيا ، الاحجار والصخور ، وفيما يتفتت من الصخور وما يتراص منها والحفريات والمستحجرات وغير ذلك مما يتصل بهذا الباب . ثم مصطلحات فى التأمين ، ثم ألفاظ الحضارة .

ومن بين بحوث هذا العدد بحث طريف فى موضوع طريف كتبه الاستاذ الدكتور مراد كامل عضو المجمع عن « الرمز فى الكيمياء عند العرب » فقد استخدمت كتب الكيمياء عند اليونان قبل الاسلام كنايات اسمية ، واستعان العرب ببعض هذه الكنايات ، وتسمى فى كتب العرب بالرموز ، ويرجع استخدامها الى سببين : **أولهما** اخفاء القصد عن غير المختصين أو عن المنافسين . **وثانيهما** : أن علماء الاسلام عرفوا الكيمياء والفلسفة والطب عن اليونان ، ووصلتهم هذه العلوم عن طريق تطورها فى مدرسة الاسكندرية بعد أن أدخلت طرق التفكير الفلسفية والدينية للقرون المسيحية الأولى التصوف والسحر الى مناهج الفكر ، ومن ثم اتجهت الى استخدام العلامات السرية والرموز على العلوم المختلفة .

وقد استخدم العرب أكثر من رمز للعنصر الواحد كما استخدموا أحيانا الرمز الواحد لأكثر من عنصر ، وبعض هذه الرموز اشتهر حتى ضاعت صفته كرمز مثل « **عقاب** » للنشادر و « **عقرب** » للكبريت .

وقسم الدكتور مراد كامل هذه الرموز الى أصول أربعة هى : اسماء الكواكب والآلهة العربية أو اليونانية أو السريانية أو الفارسية ، التسمية بأرقام الترتيب بالعربية والتى لها صلة بأسماء الكواكب ، التسمية الفارسية أو اليونانية للعنصر مع اعطاء اللفظة اليونانية صبغة عربية أو سريانية ، رموز هى مسميات أو صفات للعنصر . ثم ذكر لنا أن خصائص المعدن وصفاته كانت تتخذ رموزا له ، وقد يرمز اليه باسم يدل على فائدته مثل « النافع » للتحديد . وذكر الرموز التى اطلقت على الذهب وعددها ٣٨، الفضة ٣٩، النحاس ٥٢ ، الحديد ٥٣ ، القصدير ٤٩ ، الرصاص ٥٤ ، الزئبق — وهو أكثرها رموزا حيث بلغت رموزه — ١٤٢ ، الكبريت ١٠٢ ، الزرنيخ ٣٧ ، النشادر ٥٦ ، الاكسير ٢٥ .

● زار القاهرة فى الشهر الأخير من العام الماضى عالم من علماء الاستشراق المحدثين فى ألمانيا هو الدكتور منفريد فلايشهمر M. Fleischhammer الاستاذ بجامعة « هاله » Halle بألمانيا الديمقراطية . وقد يلقى علومه المشرقية على يد علمين كبيرين من علماء الاستشراق هما : الدكتور كارل بروكلمان Karl Brockelmann والدكتور يوهان فك Johann Fuck وقد شغل منصب استاذه الدكتور فك بعد احالته على المعاش سنة ١٩٦٢ حيث كان عميدا لمعهد الدراسات العربية بالجامعة وعدم استطاعته القيام بعمله لظروفه الصحية اذ لا يتقيدون بسن معينة مادام الاستاذ قادرا على العمل لان مرتبه هو معاشه نفسه .

وللأستاذ **فك** كتاب نفيس نقله الى العربية المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار ، وعنوانه «العربية : دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب» شرح فيه تطور الأساليب فى لغتنا من أول الهجرة الى القرن الرابع · وقد نشرت ترجمته فى مصر سنة ١٩٥١ · وقد تولى الاستاذ فك تدريس فقه اللغات السامية والعلوم الاسلامية وذاعت شهرته لتمكنه من تاريخ الحديث النبوى وتاريخ المحدثين ·

أما تلميذه الدكتور فلايشهمر فقد ظفر بدرجة الدكتوراه بنشره كتاب «مشاهير علماء الأمصار» تاليف أبى حاتم محمد بن حبان البستى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) · وقد نشره على المخطوطة الوحيدة المحفوظة بمكتبة الجامعة بمدينة ليبزج·

ويعنى الدكتور فلايشهمر بجمع المراجع التى اعتمد عليها أبو الفرج الأصفهانى فى تاليف كتاب « **الأغانى** » وهى تبلغ مائة وخمسين مرجعا · وقد ألقى خلال زيارته لمصر – لأول مرة – عدة محاضرات فى كلية الآداب بجامعة الاسكندرية وكلية البنات بجامعة عين شمس وعقد ندوات بالجامعة الازهرية وكلية آداب القاهرة وكلية دار العلوم ·

وقد ذكر لنا أن « **جمعية المستشرقين الألمانية** » التى انشئت فى « هاله » عام ١٨٤٥ وعنيت بدراسة التراث العربى والاسلامى وما يتصل بالشرق الاوسط ، وأن الدكتور هلموت ريتر H. Ritter قد أسس فيها «**النشرات الاسلامية**» حيث صدر فيها حتى الآن ٢٣ كتابا فى مقدمتها كتاب « الوافى بالوفيات » للصفدى ، وديوان ابن المعتز ، وديوان ابى نواس ، ومشاهير علماء الامصار ، وبدائع الزهور فى وقائع الدهور ، لابن اياس وغير ذلك ·

وقال لنا ان الدراسات العربية فى جمهورية المانيا الديمقراطية مقصورة على ثلاث جامعات : **برلين** حيث الأستاذ « زيمن » بتاريخ الفلسفة الاسلامية ، **وهاله** حيث يتولى التدريس فيها « فك » و « فلايشهمر » وعدد من المساعدين الناشئين ، **وليبزج** وفيها « غويشل » و «كرال»·

وقال ان عدد المخطوطات العربية فى ألمانيا الديمقراطية يقدر بحوالى عشرة آلاف ، وأن هناك مخطوطات كثيرة تختص بالعلوم عند العرب ، وكان الاستاذ « زيجل » قد تخصص فى هذه الناحية وبدأ فى نشر بعض هذه المخطوطات ولكن الأجل وافاه · وفى أكاديمية العلوم ببرلين قد تخصص الدكتور شتروماير فى تاريخ الطب والمصطلحات الطبية عند العرب ·

ومما ذكره لنا عن اهتمام المستشرقين الألمان المحدثين الآن : رسالة عن الخليل بن أحمد شيخ سيبويه نشرها الدكتور غويشل ، ورسالة وضعتها السيدة برينتس رئيس قسم الاذاعة العربية فى برلين عن آراء المسلمين فى الامامة ، ورسالة للاستاذ بلمان الذى يعمل الآن فى المركز الثقافى الألمانى بدمشق عن التاريخ الثقافى فى القرن الثالث الهجرى معتمدا على كتاب «الموشى» وقد نوقشت أخيرا رسالة حول أسماء الاعلام فى الجاهلية وصدر الاسلام تقدمت بها السيدة فالتر، ورسالة عن العلاقات الاقتصادية فى البلاد الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ شتورم ومن اهم مراجع هذه الرسالة كتاب « احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » للمقدسى·



● وعلى ذكر الدكتور كارل بروكلمان الذى تلقى عليه الدكتور فلايشهمر علومه نرجو أن تتابع « الادارة الثقافية » فى « جامعة الدول العربية » نشر بقية كتابه القيم « تاريخ الأدب العربى » الذى نشرت منه ثلاثة أجزاء نقلها الى العربية الدكتور عبدالحليم النجار رحمه الله · ونرجو أن تكل هذه الادارة أمر ترجمة بقية الأجزاء الى أحد العلماء العارفين بأسماء الكتب والمؤلفين حتى لا تضيع قيمة هذا الكتاب النفيس الذى يعد من أهم المراجع التى تقصت آثار التراث العربى

● ونذكر بهذه أن « معهد اللغات الشرقية » فى ألمانيا الديمقراطية يقوم الآن باعداد مؤلف جامع لذكرى الدكتور بروكلمان بمناسبة مرور مائة عام على مولده حيث ولد عام ١٨٦٨ ، وسيشترك فى كتابة بحوث هذا الكتاب التذكارى بعض المستشرقين من دول أخرى .

ومن المنتظر أن تعد « جامعة هالة » مؤتمراً علميا فى عام ١٩٦٨ احتفالا بذكرى هذا العالم الجليل .

ونذكر هنا أن العالم العربى الوحيد الذى اشترك فى بحوث هذا الكتاب التذكارى هو الاستاذ الدكتور مراد كامل عضو المجمع اللغوى بالقاهرة ، والموضوع الذى كتبه خصيصا لهذا الكتاب هو « نشأة الشعر الأمهرى وأوزانه » . وقد سبق له أن اشترك فى الكتاب التذكارى الذى أخرج تكريما للمستشرق الايطالى الأستاذ دلافيدا . ببحث عن « نشأة الفعل الرباعى فى اللغات السامية » وهو الذى توسع فيه بعد ذلك ونشره « المجمع العلمى المصرى » فى القاهرة بين مطبوعاته . كما اشترك أيضا فى الكتاب التذكارى الذى نشر بمناسبة مرور خمسة وستين عاما على مولد الاستاذ شبيس أستاذ الدراسات الاسلامية فى جامعة بون بألمانيا الغربية ، وكان بحثه عن « خط القرنة » وهو الخط الذى ساد حسابات مصر منذ العصر التركى حتى عصر اسماعيل للاحتفاظ بسرية حسابات الدولة . واشترك كذلك ببحث آخر عن « الشقفة الوحيدة التى عثر عليها فى سيوه باللغة السريانية » وذلك فى الكتاب التذكارى الذى نشر بمناسبة مرور ٦٥ عاما على مولد المستشرق الايطالى الأستاذ فورلانى أستاذ الآثار الشرقية والآشورية بجامعة روما .

حسن كامل الصيرفى

تيارات في المجلات والصحف



يقدمها
جمال بدران

- إن النقد والنقد الذاتي من أهم الضمانات للحرية ...
- إن الثورة ليست عملية هدم أنقاض الماضي، ولكن الثورة هي عملية بناء المستقبل « الميثاق »

الكلمة الأصلية ..

مما يلفت نظر القارىء لمجلات العام الميلادى الجديد ، أنها بأثواب جديدة .. بعضها فى أعداد ممتازة ، وبعضها الآخر بأبواب مستحدثة .. لكنها جميعا قد جمعها تيار واحد .. هو البحث عن الكلمة العربية

وأصالتها ٠٠ البحث عن لغتنا ذين الفصاحة والدروج ، أو بالأصح الاطمئنان الى الطريق التى سوف تنطلق فيه ألسنتنا فى المستقبل ٠٠ فهل ترى سيعوج بنطق الغريب من الكلمات ؟! أم ترى سيقدر على تفتيتها وتعريبها ليظل مستقيما لساننا محافظا على أصالته ؟!

تجيب مجلة ٠٠

الكاتب

فى عددها الممتاز عن القومية العربية بمقال « القومية واللغة واللهجة » فيقول كاتب المقال ٠٠ « ان أخطر هذه الظواهر هو تطور اللغة على لسان شعب ما بعزلة عن التطور الآخر الذى يحدث حتما فى نفس الوقت عند الشعوب الأخرى المعزولة » ويقوم الكاتب باجراء مقارنات بين بعض الكلمات القاموسية التى تختلف مدلولاتها من شعب عربى الى آخر منعزل عنه ، بل من قرية الى أخرى فى عزلة عنها ٠٠ مما ينتج عن كل هذا نشأة اللهجات المهددة للوحدة القومية ٠٠ ويرى أن القضاء على هذه اللهجات المحلية يقتضى زيادة الاهتمام بالتعليم والاعلام والمواصلات ، ويرى أيضا أن الحركة السياسية النشطة ٠٠ التى تتمثل فى الرغبة المشتركة لدى الجماهير فى التخلص من الاستبداد الاقطاعى والاستغلال الرأسمالى والاستعمارى تجعل للقومية طابعا حركيا متحددا يقضى على العزلة ، ويزيد الترابط والتفاعل بين أبناء لغتنا العربية ٠ ثم استخلص لنا النتائج الآتية :

١ – اللغة عامل قديم ، وهو سبب من أسباب نشأة القومية ، ولكنها هى الأخرى سبب من أسباب التوحد اللغوى على أساس الوجود بالقوة وبالفعل ٠

٢ – الوحدة القديمة فوقية والوحدة القومية جماهيرية تتعمق بالمضمون الاجتماعى لحركة الثورة ٠

٣ – حركة التوحيد القومى هى أيضا حركة توحيد لغوى ٠

٤ – لا يمكن حل المشاكل اللغوية بقرارات ٠

٥ – لن تكون لغتنا نفيا للفصحى ، كما لن تكون قهرا للعامية ٠

أما مجلة

المجلة

فقد تناولت الكلمات من زاوية علمية ٠٠ فعرضت اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها ٠٠ سواء كانت هذه اللغة منطوقة أم مكتوبة ٠٠ فيعرض الدكتور كمال بشر لكتاب المرحوم الدكتور محمود السعران « علم اللغة » ويقول :

« ان علم اللغة بالمفهوم الحديث ليس من وظيفته المباشرة وضع قواعد أو أحكام عامة للتمييز بين الجيد والردىء منه ، انما وظيفته دراسة اللغة ذاتها ، بالكشف عن خواصها ومميزاتها وتسجيل هذه الخواص والمميزات كما هى فى صورة قواعد ونظم عامة بعد اخضاع الأمثلة الجزئية للتجريد ، وهذه الوظيفة تتفق تماما مع المفهوم الحديث للغة نفسها ، فهى فى عرفنا الحالى : ما يتكلمه الناس بالفعل لا ما يجب أن يتكلمه الناس » ٠

وما يهمنا فى هذا المقال القيم ٠٠ هو ما عرضه من قضيتين هامتين احتواهما الكتاب وهما « البحث اللغوى » الذى يجب أن يستقى فلسفته الفكرية وعناصرها من طبيعة موضوع العلم ٠٠ بمعنى أن يستمد مبادئه من طبيعة اللغة نفسها ، ومن طبيعة الأدوار التى تقوم بها فى الحياة الانسانية ٠

والقضية الهامة الأخرى هى « الوظيفة اللغوية » فهى اجتماعية أو « طريقة من العمل » قبل كل شىء ٠٠ بمعنى أن تمثل للغالبية العظمى من الناس طريق حياتنا ، يدبرون بواسطتها شئونهم وأعمالهم ، أما القول بأن وظيفتها التفاهم أو توصيل الفكر أو التعبير عن الفكر فقط ٠٠ فأمر يعوزه جانب الدقة ٠٠ لأنه لا يتيح لنا تحليل جميع أشكال السلوك الكلامى ٠٠

وقد حاولت مجلة

العربي

ان تقدم حصرا جامعا لكل لغات العالم وأصولها ٠٠ فبدأته بمسلمة علمية هى أن الكلمة صوت يرمز الى معنى ، وكتابة الكلمة رسم يرمز الى هذا الصوت ٠ فالصوت هو الاصل ، والصوت يصنعه الهواء ليخرج كلمة مسموعة ٠٠ ما تلبث أن تتبدد فى الهواء ٠٠ لهذا فقد انقرض من اللغات ما لا يمكن حصره الا بامكان حصر سلالات الاقوام المنقرضة وتتبع المتبقية ٠٠ ومن الطريف أن يكون المتبقى منها متراوحا بين ثلاثة وأربعة آلاف لغة ، والأطرف من ذلك أنه أمكن تصنيفها الى ثلاثة أصناف هى ٠٠العازلة واللاصقة والمتصرفة ٠٠ فالعازلة مثل اللغات الصينية التبتية وكثير من لغات افريقيا ٠٠ وهى التى لاتتغير فيها الكلمة ، فلا تشتق منها كلمات ٠٠ فتكون هى الاسم وهى الفعل وهى الصفة والظرف ٠٠ وتتميز الكلمة فيها بالمقطع الواحد ، لكنها تتعدد طبقات أصواتها التى يتغير المعنى باختلاف

طابقها بين العلو ، الانخفاض أو التطاول والتقاصر واللغات اللاصقة مثل السومرية القديمة والقوقازية والدرافيدية واليابانية والكورية الخ ·· وهى التى يتغير فيها معنى الكلمة اذا ما أضيف لها مقطع أو اثنين لها ·

أما اللغات المتصرفة مثل الهندية الأوروبية والحامية والسامية مثل لغتنا العربية ·· وهى التى يتغير فيها بناء الكلمة فتدل على معنى جديد ·

وتتبع مجلة

المختار

اللغة ·· كعملية نطق يمارسها الانسان منذ طفولته ·· فالأطفال يميلون عادة الى تقليد الايماءات والحركات التى تصاحب الكلام ، وتشبه أصوات كلامهم التى يحاولون اصدارها فى البداية أصوات الغرغرة ·· لأنها تنشأ فى مؤخرة الحلق ·· وما يلبث الصوت أن يتقدم تدريجيا الى مقدمة الفم ، ومن ثم يستطيع الطفل استخدام شفتيه للتحكم فى الصوت الخارج ·

ويركز المقال على حقيقة هامة ·· هى أن الطفل الذى له اخوة اكبر منه يجد سهولة فى فرز الكلمات فى ذهنه أكثر مما يجد الطفل الوحيد ، وان الطفل الذى يسمع أحاديث الكبار فقط ·· يواجه وقتا عصبيا فى تعلم كلماتم ·· ذلك لأن الأول يعيش فى مجتمع طفولى يردد ويكرر أمامه كلمات محددة تصير مألوفة لديه ، أما الثانى فيجد أن الكلمات أكثر تنويعا وأقل تكرارا ·· ومن ثم يصعب عليه الالمام بها أو نطقها ·

أما مجلة ·

الهلال

فقد نشرت فى عددها الممتاز حوارا مع الكاتب الجزائرى مولود معمرى الذى لا يستطيع أن يؤلف كتبه الأدبية بغير اللغة الفرنسية ، وقد أجاب على سؤال عما اذا كان حاول الكتابة بالعربية ·· فقال ·· « الكتابة بالعربية تتطلب التفقه فيها » ·

وأظن أن فى اجابة الكاتب الجزائرى ما يكفى لتجسيم مأساة اللغة العربية مع كل مستعمر ، كذلك نلمس فى هذه الاجابة عمق النصيحة وصدقها لكل ممسك بالقلم يريد أن يكتب أدبا ·

لكن مولود معمرى يدافع عن الأدب الجزائرى المهدد بالاندثار لعدم كتابته بالعربية ·· فيقول « هناك يقظة ووعى ، والأدب الجزائرى استطاع أن يثبت وجوده بحقيقته ، وهو يواصل تقدمه وتفوقه ·· لأن الكاتب

الجزائرى يعتبر الكتابة بالفرنسية وسيلة تعبير فقط ٠٠ أما انفعالاته الحقيقية فهى عربية لحما ودما ٠٠ »

أى نعم انفعـالات الكاتب عـربية حقا ، لكن لمن يكتب ، ولمن يعبر بالفرنسية ، سيكون غريبا على الناطقين باللغتين غريب الانفعالات على الفرنسيين ، وغريب التعبير على أهله العرب ٠٠ خاصة وأن الجهود لتعميم اللغة العربية فى الوطن الشقيق قائمة على قدم وساق ٠ ولكننى أخال أن دور كتابنا الذين يجيدون اللغات الانجليزية والفرنسية يتمثل فى نقل أدبنا العربى الى المجال العالمى ٠٠ فهم أقدر من غيرهم على تأدية مثـل هذه المهمة الجليلة ، الا يفهم من هذا أن يقتصر دورهم على الترجمة والنقل ، وانما ينصرف الى الابداع أيضا ، الى صبغ أدبنا المحلى بالطابع العالمى ٠٠ ومن ثم يخرج فكرنا الى هذا النطاق الانسانى الأصيل ٠٠ الذى ينبثق عن الانفعال الصادق ، ويركب الكلمات المستوفاة للمقاييس السائدة ٠

وهنا تبرز الكلمات الأصلية بمحتواها وشكلها ٠٠ المشبعة لمختلف المشارب ٠٠ المعبرة عن سائر الأمزجة والاتجاهات ٠٠ الموحدة لكل القوى البناءة فى جميع الأنحاء ٠٠

وها هو الرئيس هوارى بومدين يجيب فى مجلة ٠

الطليعة

مؤكدا هذه الضرورة وغيرها من الضرورات ٠٠ فيقول ان خطة الامبريالية والاستعمار الجديد خطة عامة تشمل المعمورة كلها ، تشمل العالم الثالث والعالم الاشتراكى ، تشمل كل النواحى ، وتشملنا نحن على وجه الخصوص ٠٠ فيكون من الخطأ أن ننظر الى المعركة على أساس أنها معركة محدودة فى النطاق العربى ، ولمواجهة الهجوم لابد من العمل بقدر الامكان عملا واسعا ومتصلا بالقوات التقدمية الثورية فى العالم ، وكحلقة أولى ٠٠ العالم العربى الذى يضم قوى تقدمية ورجعية ، ثم افريقية التى تخضع لنفس التحليل ٠٠ ومن ثم لابد أن يكون هناك نوع من الاتصال بين هذه القوى الثورية فى العالم العربى وافريقية ، بل ولابد من توسيع دائرة الاتصال حتى تشمل أصدقاءنا الطبيعيين فى المعسكر الاشتراكى ٠٠ أما كيف يتم الاتصال ٠٠ فذلك أمر له طرق كثيرة ٠٠ تستلزم أن نعتقد أولا فى ضرورتها ، فنعمل على تحويل هذا الأمر الى حقيقة واقعية لا نظرية فقط ٠٠

وهنا نحس كقراء وكمواطنين عرب وكبشر نعيش فى مجتمع العالم الكبير ٠٠ نحس بأن أولى هذه الطرق هى اللغة ٠٠ الكلمة المسموعة ، والكلمة المكتوبة ، والكلمة النابضة بالصدق، والكلمة التى نسمعها لغيرنا بشتى اللغات ٠٠ بشتى الوسائل والأساليب ٠٠ لتوحد المشاعر ، وتنتصر على المؤامرات ، وتقضى على الهمهمات والتخرصات ٠٠ لأنها ٠٠ هى الكلمة الأصيلة ٠

جمال بدران